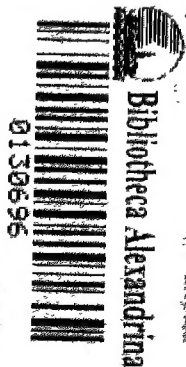
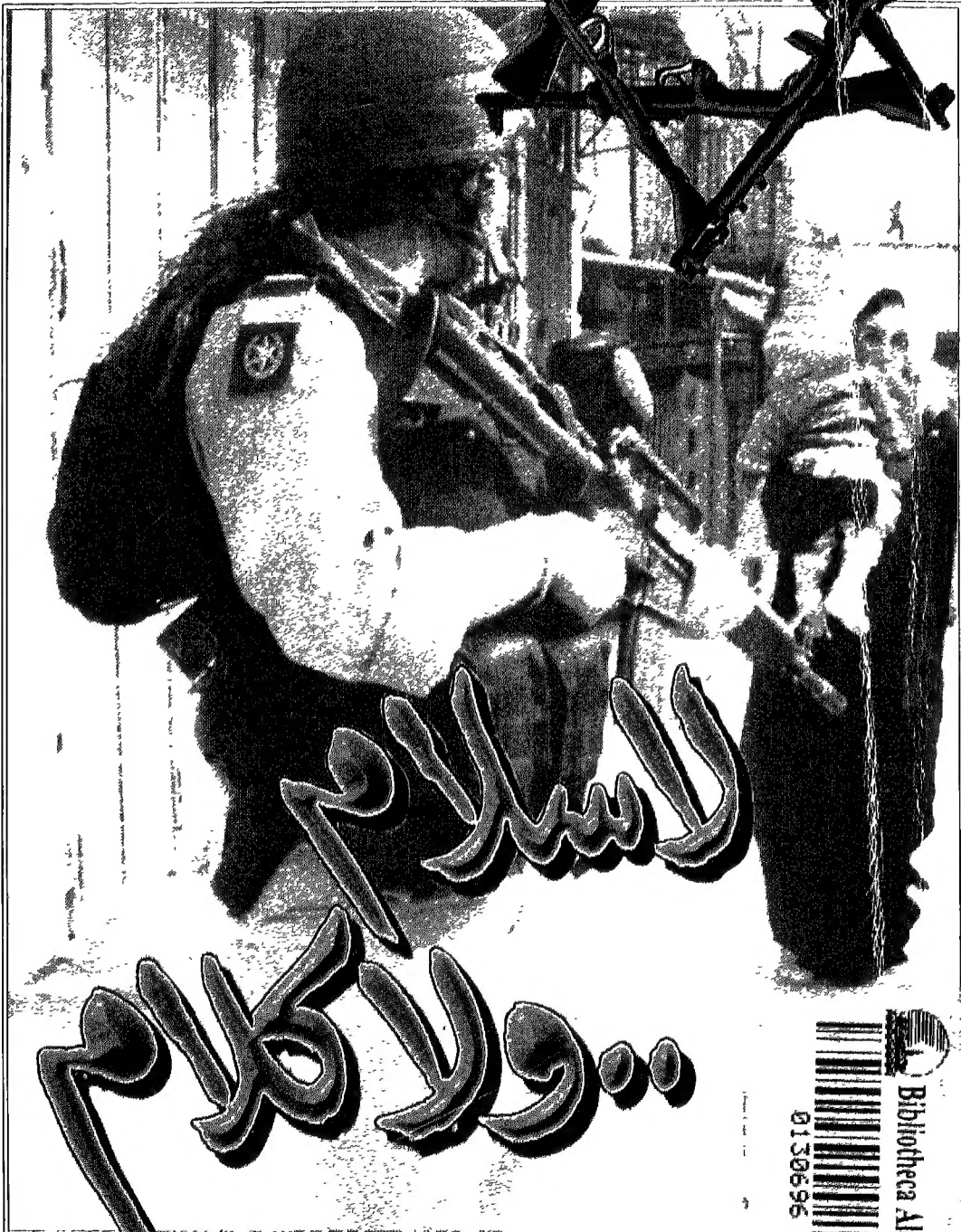


عاطف حزين

لا سلام ولا كلام



اسرائيل التي رأيتها

لا سلام.. ولا كلام!

عاطف حزين

اهداء

إلى هدى.. ابنتى
كى تعلم أن أبساها حاول أن يكون أسداً ففشل، ورفض أن يصبح
فأراً.. فنجح.

مقدمة

هذا الكتاب «غلطة» لا تغتفر!

وإن شئنا الدقة.. هو نتيجة لغلطة واحدة وقعت فيها، وما كان ينبغي أن أقع لولا أنني جبت عن قول كلمة فى منتهى البساطة.. لا!
ولا أذكر أنني تورطت ذات مرة فى اعتراف شئ تأباه نفسى، ويرفضه عقلى، وثمقته كل ذرة فى كيانى. إلا هذه المرة؟!.

كلفونى بالسفر إلى إسرائيل ذات صباح. لمعت فكرة السفر فى إحدى عيني. ولم تر الأخرى كلمة إسرائيل!

من المؤكد أن ذلك كان نتيجة لشعور بالنقص يسكن بداخلى.. كونى أنتمى لجيل الزحام. فمن الطبيعى ألا أرفض فكرة السفر خارج مصر، وأنا الذى انتظرها طوال احد عشر عاماً، لم توفدنى خلالها جريدتى إلا إلى السودان!

وهكذا كنت - طوال تلك المدة - محروماً من التعلم الحقيقى الذى يأتى من الاحتكاك بأنواع أخرى من البشر.. والتعامل مع مناخ آخر غير مناخ بلدى.. والتنفس فى بيئه مختلفة.. ومن ثم حصد الفوائد السبع للسفر.

وعندما جاءتنى «إسرائيل» كنت أشبه - مجرد تشبيه - بالعانس التى تحلم بأن تجرب «صنف الرجال» فجاءها رجل «أى كلام» فقالت لنفسها: «ما يضرش.. ضل راجل ولا ضل حيطه!».

■ لا سلام ولا كلام ■

ولست في حاجة - بعد هذا الإعراف - إلى القول بأنني لو كنت «شبعان» من «صنف» السفر خارج مصر لقلت لإسرائيل: شكراً.

وبالطبع لم أقلها. وسافرت إلى إسرائيل. عشرة أيام طوال عشتها ما بين عدو وحبيب. كان اليوم هناك «مضروب في سبعة» حتى خلت نفسي أسيراً ينتظر وصول الصليب الأحمر!

حاولت أن أرى إسرائيل - أرضها وناسها - بعين الصحفي، فإذا بكل الأجواء هناك تعيدني طفلاً بورسعيداً شردته إسرائيل مرتين، حرمة من مدرسته وميرلته وأصدقاء طفولته، خطفته من بيته ومن «بلاچ» مدينته. وباعدت بينه وبين أبيه.

أعادي عقاب وحصار وتجويع الفلسطينيين عام ١٩٩٦ إلى شهر يونيه عام ١٩٦٧، فلم أر غصن زيتون أخضر تقاوم رائحته الموت، ولم أعثر على عش حمام أبيض يتلع هديله أنات المرضى والجوعى، نظرت حولي جيداً فلم أر سوى رشاش إسرائيلي ماركة «عوزى»!

أجريت حوارات مع الموت والجوع والمرضى أكثر مما استمعت إلى من تنبض عروقهم بالحياة، حاولت أن ألملم حروف «السلام» المبعثرة وألصقها إلى جوار بعضها البعض، فلم أعثر إلا على ثلاثة حروف أخرى: ح.. ر.. ب!

سألت الإسرائيليين: ماذا تريدون؟

قالوا: الأمن الشخصي.. الاستقرار والأرض!

وسألت الفلسطينيين: بماذا تحلمون؟

فقالوا: دولة مستقلة عاصمتها القدس.

بحثت عن عالم كيمياء - وليس سياسة - ليوازن بين طرفي هذه المعادلة

فأوصاني أحد حكماء الفلسطينيين بأن أوفر مجهودى!

فى تلك الأرض لا يعلو صوت على صوت التناقض! الإسرائيليون

يقولون كلاماً فى نشرة الظهيرة، يتملصون منه قبل ذهابهم إلى النوم.

الفلسطينيون يتهمون «حماس» برغبتها فى تدمير إسرائيل، و«حماس»

تقر بمبدأ الحوار معها!

حتى سفيرنا فى تل أبيب قال كلاماً يختلف تماماً عما قاله سفيرنا فى

غزه. كلاهما مال إلى الجانب الذى يتكلم على أرضه. الحقيقة لا محل

لها من الإعراب. حتى العلم الفلسطينى يرفرف على استحياء فوق الضفة

وغزة! فهل فهمت قطعة القماش أنها مرفوعة فوق أرض تعاني نوعاً

جديداً من الاحتلال اسمه الحكم الذاتى؟!.

هناك قابلت شباب الانتفاضة ورموز حماس. قالوا لى أن ما يجمع

بينهم وبين إسرائيل هدنة وليس سلاماً، ذهبت إلى حيدر عبد الشافى

شيخ الصامدين فنادى بالجهاد ضد المحتل الإسرائيلى، وقفت على حدود

قرية «الخونة» التى تعيش فيها ٤٠٠ أسرة فلسطينية «عميلة». ألم أقل أنها

أرض التناقض؟!.

وعلى الرغم من المعاناة التي كان على مواجهتها في هذه الرحلة، بداية من تحقيقات الموساد معي هنا في مطار القاهرة، ومروراً بتقاعس سفارتنا هناك في تل أبيب عن تقديم أية مساعدة لى.. فضلاً عما لاقيته وأنا أحاول المرور إلى مناطق الحكم الذاتي، رغم كل ذلك لم أفكر في نشر هذه «الغلطة» في كتاب.

لكنني تأملت ما حدث في إسرائيل عقب أن غادرتها فاكتشفت أن ما سمعته هناك في مارس هو الذي يحدث في أكتوبر.. وأن التصريح «الصريح» الذي قال فيه نتانياهو أن «دولة فلسطين لن تقوم لها قائمة إلا على جثته» لا يختلف كثيراً عما كان يفعله بيريز في آخر أيامه. وما رفضه لتسليم «الخليل» في الموعد المحدد إلا برهانا على أن نتانياهو ليس أسوأ منه، وأن كان أكثر مباشرة وشفافية ووضوحاً.

ولا أدعى بذلك أنني أصبت جديداً. فكل الدراسات الاسرائيلية الفلسطينية لا تبتعد عما قلته، وحكامنا العرب يعلمون ذلك تماماً، كل ما في الأمر أن الجميع يحاولون جعل «طعم» الحياة بجوار إسرائيل أقل مرارة.. طالما أننا لن نستطيع تغيير الأمر الواقع!.

والذي أثار دهشتي في هذه الرحلة ليس اكتشافى - المتأخر - أن إسرائيل لا تهمها كثيراً حكاية السلام. ولا أننا - كعرب - نفهم معنى السلام بصورة غير التي تفهمها إسرائيل، ما أدهشنى - حقاً - هم الذين

سافروا قبلى إلى إسرائيل وعادوا يكتبون وهم فى حالة انبهار وتبشير
بالديمقراطية ودهشة من النظام والنظافة والتحضر! حاولت أن أندesh
مثلهم فلم أجد إلا ما يصدمنى، جربت أن انبهر مثلهم فلم أقابل إلا ما
يشير دموعى، باختصار فشلت فى الكتابة عن إسرائيل كصحفى، فعهدت
بالمهمة لطفل بوسعيدى عمره ١٠ سنوات لعله يعرف إسرائيل التى لم
نعد نعرفها!

عاطف حزين

القاهرة - اكتوبر ١٩٩٦

الفصل الأول

صرخة من بور سعيد؟!

**ها هو طارق بن زياد يبعث من
جديد ويحرق كل مراكبه. ليقول
لجنوده: العدو من أمامكم والبحر
من خلفكم.. فأين المفر؟**

هل يأتى يوم وأنسى ذلك الصباح من شهر مارس ١٩٩٦؟

مستحيل!

لم أكن معتاداً على الذهاب مبكراً يوم الاثنين إلى «أخبار اليوم». وكنت دائماً أكافئ نفسي بساعتين نوم زيادة عن المعتاد فى ذلك اليوم قبل أن أذهب إلى جريدتى فى الحادية عشر قبل الظهر.

وحتى أستمتع أكثر بتلك المكافأة - النوم - لم أكن أعير أى التفات إلى رنين الهاتف القابع إلى جوار مخدعى، خاصة وأن مكالمات ذلك الوقت المبكر لا تخرج عن كونها معاكسات ليس أكثر.

وحين أصر الهاتف على الرنين المتواصل دون أن يمل ذلك الذى يمسك بطرفه الآخر، قررت أن يبدأ صباحى بصب بعض من الشتائم عبر الأسلاك، لعل صاحبنا يتوقف عن الحيلولة بينى وبين مكافأة يوم الاثنين.

لكنه كان زميلى محمد عمر الذى وبخنى على تقاعسى عن الرد .. وأن الاستاذ محمد طنطاوى مدير التحرير يريد أن يحدثنى فى أمر هام!

لم يزد مدير التحرير - كعادته معى - عن بضع كلمات: جواز سفرك جاهز؟ .. تعالى حالا لأنك ستسافر إلى إسرائيل .. مع السلامة!

من المؤكد أننى أحلم، آه من تلك الأحلام التى تأتى فى الساعات الأولى من الصباح. وتباً لهذا الحلم بالذات؟!. أننى أتمنى السفر إلى اليابان أو الهند، ولن أتردد لو حملنى الحلم إلى جنوب أفريقيا.. وربما تكتمل سعادتى لو طرت إلى ريودى جانيرو أو ساو باولو.

أنا رجل واقعى حتى فى احلامي، لم أحلم بالسفر إلى هونولولو أو هاواى أو

■ لا سلام ولا كلام ■

البهاماس. لم أتمكن في الحى اللاتينى بباريس، أو ميدان الطرف الأغر فى لندن، ولم اتجراً وأحلم بالتسكع فى ردهات قصور بنى الأحمر.. آخر ملوكنا فى الأندلس.

فهل هذا هو الثواب على واقعتى.. إسرائيل؟

ظننته كابوساً من تلك الكوايس التى تقتلع من يذهب إلى سريره دون أن يتوضأ. عفوا.. لن أفعلها ثانية.. سأحرص دوماً على الوضوء تجنباً لمثل هذا الكابوس العبرى مستقبلاً.

- من هذا الذى حدثك فى التليفون ولم ترد عليه إلا بكلمه: حاضر؟

سؤال زوجتى المفاجئ طرد. آخر فلول النوم من جفنى. لم يكن حلماً إذن.. ولم يكن - أيضاً - كابوساً، إن هو إلا واقع على أن أواجهه بالدخول إلى الحمام وارتداء ملابسى والذهاب إلى أخبار اليوم دون تأخير.

- يريدنى مدير التحرير أن أسافر إلى اسرائيل.. هكذا فجأة!

تلك كانت إجابتى على سؤال زوجتى التى أشاحت بوجهها قبل أن تنصحنى بالاعتذار عن عدم السفر، وحين أدركت عدم تحمسى لنصيحتها استطردت بأنهم لا بد وقد اختارونى بعد أن اعتذر كل زملائى من قبلى! وحين أيقنت زوجتى عدم نجاحها فى استفزازى ألفت بعبارتها الأخيرة: «معقول تصوم تصوم.. وتفطر على اسرائيل؟».

الحق اننى لم أكن أمتلك فى تلك الساعة من الصباح أى قدرة على رد الفعل، لم أستطع أن أواجه «منطق» زوجتى «بمنطق» آخر بعد أن سقطت فى أسر سؤال واحد: لماذا أنا؟. ولم يلبث أن صار السؤال طابوراً من علامات الاستفهام، لماذا أنا

محرر التحقيقات بينما يرشح المنطق أحد الزملاء بقسم الشؤون الخارجية؟ هل الاستاذ طنطاوى هو صاحب هذا الترشيح؟ هذا أمر مستبعد، فلست على قائمة أولوياته. فهل يكون الاستاذ كمال عبد الرؤوف؟ ولا هذا أيضاً.. فطريقته فى التفكير تتجاوزنى دائماً، لم يبق إلا الاستاذ ابراهيم سعده رئيس التحرير، ولكنه موجود حالياً فى سويسرا، ومع ذلك فهو الوحيد الذى يمكن أن يتخذ هذا القرار. فماذا يحدث لو اعتذرت عن عدم السفر إلى تلك الدولة التى أحمل لها رصيذاً لا ينفد من الكراهية والعداوة؟ أين الشجاعة ياربى.. أتراها فى السفر أم فى رفضه؟

ولم أجب على أى سؤال من تلك الاسئلة، حتى توقف بى مترو الانفاق فى محطة جمال عبد الناصر. لماذا لم يجعلوها هذه المحطة أمام باب أخبار اليوم مباشرة حتى ينقذونى من برائن تلك الاسئلة الخائقة؟

وأخيراً وجدت نفسى وجها لوجه مع الأستاذ محمد طنطاوى، نسيت إلقاء التحية وقلت له مباشرة: ممكن فرصة أفكر؟

لم يرد على سؤالى، والتفت إلى التليفون الداخلى وطلب ثلاثة أرقام. ثم قال لمن رد عليه: تأشيرة إسرائيل تكون جاهزة النهارده بإسم عاطف حزين والمصور الذى سيحدده رئيس قسم التصوير.

ثم ابتسم الاستاذ طنطاوى وقال لى: توكل على الله.. هذه المهمة ستفيدك كثيراً، فما يحدث الآن فى إسرائيل والأرض المحتلة يثير شهية أى صحفى بغض النظر عن موقفه من إسرائيل. أظنك فهمتنى، لكننى لا أظنك تعلم أن الاستاذ ابراهيم سعده هو الذى رشحك.. فهل ستخذه؟

ها هو طارق بن زياد يبعث من جديد ويعرق كل مراكبه ليقول لجنوده: العدو من أمامكم والبحر من خلفكم.. فأين المفر؟

■ لا سلام ولا كلام ■

ولكن كيف أجعلهم يختمون إحدى صفحات جواز سفرى بشعار دولة إسرائيل؟ هل توجد وسيلة أخرى؟

فجأة تراجع الصحفى بداخلى، وحل محله طفل بورسعيدى ولد عام ١٩٥٨ عقب العدوان الثلاثى بخمسة عشر شهراً ومرارة العدوان مازالت تسكن أبيه وأمه وخاله وعمه، طفل أدرك - قبل سن الإدراك - أن اليهود تسببوا فى تشريد أسرته فى فجر أحد الأيام ليجدوا أنفسهم أمام بحيرة المنزلة فى انتظار من يجدف بهم بعيداً عن شاطئ بورسعيد الملتهب!.

كيف أنسى أختى وهى تسأل أمى ونحن نهاجر مرة أخرى فى الصباح الباكر فى سيارة توزيع أخبار اليوم هل سنموت يا ماما؟.

هربنا بملابس النوم لنمضى ست سنوات كاملة بعيداً عن أرض «الوطن».. بورسعيد، فهل يمكن أن أصفح عن اليهود؟

أعلم أن هناك مبادرة سلام.. أعلم أن هناك اتفاقية وقعت فى كامب ديفيد.. وأعلم أن هناك معاهدة سلام وقعها الرئيس الراحل أنور السادات مع بسجن وبينهما كارتر، لكننى لا أستطيع أن أنزع قلبى وأضع مكانه قلباً آخر حتى ولو ضمن لى الدكتور مجدى يعقوب لنجاح العملية!.

كيف أنسى كلمات الأستاذ محمود بركات مدرس اللغة العربية بمدرسة النصر الابتدائية ببورفؤاد وهو يودعنا فى آخر يوم دراسة بعد أن قرروا إغلاق مدارس بورسعيد: «سنظل فى حرب مع اليهود حتى قيام الساعة، هكذا يقول القرآن.. فهل تصدقون كلام الله؟».

طبعاً يا أستاذ بركات.. فإذا لم نصدق القرآن، فمن أجدر بالتصديق؟!.

لا أعرف أين يعيش الأستاذ محمود بركات الآن، لكننى أعرف أننى - مع اقترابى من بوابة الاربعين - مازلت ذلك الطفل الذى يرى اليهود مرادفاً للراية السوداء التى كنا نرفعها فوق أسطح منازلنا عقب «نكسة» ٦٧، ومازلت أحفظ الدروس التى كان يلقتها لى خالى «العربى».. جندى الاستطلاع.. فى كل إجازة ميدانية. لم يكن يفكر إلا فى ساعة الخلاص، كان يشحنى وكأننى سأحارب معه، وكان يسعد بما يفعله الفيتناميون بالأمريكيين فى أحراش فييتنام، وكأنه يعوض نفسه عن فترات الاستنزاف والانتظار! هل أنسى الحزن الذى كان يكسى وجه أمى والذى انقلب فجأة إلى زغرودة حين تلقينا - ونحن فى دمياط - نبأ تدمير المدمرة إيلات فى مدخل بورسعيد؟.

كنت أصدق كلمات خالى «العربى» وهو يقسم لى على المصحف الذى لا يفارق جيبه أن الجيش المصرى سيمزق اليهود إذا أتيح له خوض معركة حقيقية، وكنت أرد عليه وأنا أصحبه - كعادتى - إلى محطة القطار عقب انتهاء اجازته: أتمنى أن أحصل على شهادتى الإعدادية من بورسعيد، لا أريد شهادة أخرى من دمياط فهل يمكن أن يتحقق ذلك خلال عام واحد؟

وبفضل خالى العربى وزملائه الأبطال قضيت المرحلة الثانوية - كلها - فى بورسعيد، وإصراراً على ارتباطى بأرضها لم أشأ أن أغادرها فى المرحلة الجامعية إلى كلية الإعلام بالقاهرة، وفضلت أن أقدم أوراقى إلى كلية التجارة ببورفؤاد.. بجوار مدرسة النصر الابتدائية التى تعلمت فى فصولها دروس الأستاذ بركات.

بعد كل ذلك.. كيف يمكن أن أذهب إلى إسرائيل.. وكيف سيكون رد فعل أصدقائى فى بورفؤاد وبورسعيد؟ هل يغفروا لى لأنها مهمة عمل لا يجب أن أهرب منها؟ هل سيباركون لى لاننى سأصلى وأدعو لهم فى المسجد الأقصى؟

لماذا لا أجرب بالونة اختبار مع أقرب الناس إلى قلبي.. أمي؟.

كل يوم كنت أحادثها تليفونيا من مكتبي بالجريدة، لكن هذه المرة كان الأمر شاقاً على نفسي، حين وصلني صوتها حاولت الالتفاف حول الموضوع وقلت لها:

- رئيس التحرير رشحنى للسفر فى مهمة صحفية خارج مصر.

- مبروك يا ابنى.. ويا ترى أوروبا ولا أمريكا؟

- لا أبداً.. بلد قريب جداً منا.. ساعة - يادوب - بالطائرة.

- أوعى تكون السودان تانى.

- لا.. سأسافر ان شاء الله إلى القدس وسأصلى فى المسجد الأقصى وسأقابل

أبو عمار ورموز الثورة الفلسطينية الذين أحببتهم وأنا صغير.

- القدس.. المسجد الأقصى! انت رايع إسرائيل ولا إيه؟

- يعنى.. حاجة زى كده.

وتنطلق صرخة من أمي لم أسمعها من قبل إلا حين أخبرونا ونحن فى دمياط

أن اليهود دخلوا رأس العش.

وبعد أن هدأت الصرخة أعقبتها عشرات الرجاءات بأن اعتذر عن عدم السفر

لأن اليهود هم الذين فعلوا بنا.. وهم الذين أذاقونا المر، وهم قتلة الأنبياء وهم

لا يريدون السلام. ياخبر اسود يا عاطف.. أنت صدقت حكاية السلام بيننا

وبينهم؟

- يا أمي لا تخافى.. هناك علاقات دبلوماسية بيننا وبينهم، ثم أنا مسافر أساساً

إلى أراضى الحكم الذاتى، يعنى غزة والضفة، وسأمر - بالطبع - على القدس، ولن

■ لا سلام ولا كلام ■

أمكث في تل أبيب أكثر من ساعات.

- لكننى سمعت فى نشرة الثانية والنصف أن مناطق الحكم الذاتى محاصرة بسبب اليهود اللى ماتوا فى تل أبيب فكيف ستدخل؟

- يا أمى أنا صحفى.. ولن تكون هناك مشكلة فى الدخول ان شاء الله بشرط أن تدعى لى بالتوفيق.

- لا.. أنا هتكلم مع الاستاذ إبراهيم سعده فى التليفون وأرجوه أن يعفيك من السفر إلى إسرائيل.. هو بورسعيدى وأكد عارف أدأه احنا بنكره اليهود.

- الأستاذ إبراهيم فى سويسرا.. وبعدين أنا نفسى أصلى فى المسجد الأقصى، أرجوك لاتصعبى على المهمة.

- يعنى مفيش فايدة معاك؟

- لا تخافى.. لو كان سيصيينى مكروه من اليهود لحدث فى ٦٧ أو مع اندلاع حرب الاستنزاف، هل نسيت القنابل التى كانت تسقط بجوارنا؟

- هل يمكن أن أراك قبل أن تسافر؟

- للأسف - يا أمى - الوقت ضيق جداً، وضرورى أسافر بكره.

- هل ستأخر هناك؟

- عشرة أيام.. وربما لاتطول المدة أكثر من أسبوع.

- ضع المصحف فى جيبتك.. لاتتركه.

- حاضر.

- لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله.

الفصل الثاني

يوم القيامة

**كل دقيقة كنا نسقط عشر طائرات
للعديو الإسرائيلي، وما هي إلا
ساعات ويدخل الجيش المصري تل
أييب ويلقى ياسرائيل في البحر! **

■ لا سلام ولا كلام ■

سألنى مدير العلاقات العامة بالجريدة عما إذا كنت أريد السفر على متن الخطوط الوطنية أم على متن خطوط شركة «العال» الإسرائيلية؟ قلت له بدون تفكير: فلنجعلها إسرائيلية من ألفها إلى يائها!.

بعدها تنبعت إلى أنه ما كان يجب أن أنفرد بهذا القرار وحدى، فالزميل ابراهيم مسلم المصور الذى سيراقتنى كان يجب أن أشركه فى القرار. ولكننى ما كنت أظنه سيمانع، فلعله يريد - مثلى - معاشة التجارب الجديدة.

لكن مسألة «العال» لم تكن تنطوى - فى واقع الأمر - على رغبة فى الاستكشاف، بقدر ما كانت رغبة فى وضع نفسى داخل الغلاف الجوى الإسرائيلى وأنا فى مطار القاهرة. فإذا ما حطت طائرتهم فى مطار بن جوريون يكون وقع الصدمة أخف مما لو كانت طائرتى مصرية يقودها طيار مصرى ومعه مضيفات مصرية.

لكننى دفعت ثمن هذا الاختيار غالياً؟!

لم يكن اسم ابراهيم مسلم - زميلى المصور - غريباً على بالطبع، لكن الغريب - حقاً - أنه كان المصور الوحيد فى دار أخبار اليوم الذى لم يسعدنى الحظ بالعمل معه طوال عشر سنوات صاحبنى خلالها كل الزملاء فى قسم التصوير فيما عداه.

ومع كل ما سمعته من مديح لشخصه وكفاءته، أعترف أن رغبتى - فى البداية - تعارضت مع ترشيح قسم التصوير، كنت أفضل وأنا انتقل من زمن إلى زمن، ومن أرض أحبها إلى أرض أكرها أن يصاحبنى زميل يماثلنى فى العمر عملت معه مراراً من قبل. فلست فى حاجة إلى حواجز نفسية تضاف إلى الحواجز التى ساقبها فى إسرائيل، فالحاج ابراهيم مسلم رجل «خمسيني» العمر، وأنا «ثلاثيني» العمر، والحل أن أحطم هذا الحاجز هنا فى القاهرة قبل أن نصل إلى المطار.

■ لا سلام ولا كلام ■

وقررت أن تكون بداية تعارفى على الحاج ابراهيم مسلم على مقهى شارع الصحافة. اكتشفت أنه - مثلى - يعشق الشيشة، وبين سحب دخانها ورشقات الشاي تحدثنا فى كل شئ إلا مهمة السفر، حتى عندما ذهبنا إلى السفارة الإسرائيلية لاستلام التأشيرة لم يسأل أحدنا الآخر: ماذا سنفعل هناك؟!.

يوم كامل - إلا قليلاً - أمضيته مع الحاج ابراهيم، استهلكنا - خلاله - خمسين باكو معسل، ونصف كيلو شاي وبعضاً من رصيدنا من الحكاوى! اكتشفت - بعد أن ذهب كل منا ليعد حقييته - أن هذا الرجل كنز كان بجوارى دون أن اكتشفه! اكتشفت - ويا للغرابة - أن منزله يبعد خطوات قليلة عن منزلى بحى حلمية الزيتون! كل هذا ولم نتقابل مصادفة أو فى عمل. أكتشفت - وهذا هو الأهم - انه يمقت إسرائيل والإسرائيليين، وإذا كان فى السفر - كما يقولون - سبع فوائد، فإن هذه الاكتشافات كانت فائدتى الأولى من السفر إلى إسرائيل.

كان موعد اقلاع طائرة شركة «العال» فى تمام العاشرة من مساء الاربعاء، فى ظروف السفر العادية لابد أن يتواجد المسافر فى المطار قبل السفر بساعتين، لكنهم أخبرونا فى مكتب طيران العال بضرورة التواجد فى المطار قبل السفر بأربع ساعات على الأقل!.

ولأن رفيق رحلتى يسكن إلى جوارى فى الحلمية، كان طبيعياً أن تبدأ الرحلة إلى إسرائيل من ميدان الحلمية حيث انتظرنا محمد البدرى سائق أخبار اليوم.

وطوال الطريق إلى المطار لم ينبس ثلاثتنا بحرف، محمد البدرى الذى كان لايمل من الكلام احترام رغبتنا فى الصمت والتأمل والاسترجاع وأشياء كثيرة أعلم ما يخصنى منها.

وكان ما يخصنى .. ثقيلًا.. حارًا.. وموجعاً؟!

تذكرت أبى - الحاج جمعه - وهو يوقظنا فى فجر أحد أيام شهر يونية من عام ١٩٦٧. حين فتحت عينى التقطت صورة أمى وهى تجمع بعض الملابس فى حقيبة يد صغيرة. بمجرد أن تنبعت إلى استيقاظى أمرتنى بأن أغير ملابسى بسرعة وأساعد أختى «أمل» فى ارتداء ملابسها، أما أبى فقد تولى مساعدة أختى «محمد» فى ارتداء ملابسها، خمنت وأنا فى تلك السن - العاشرة - أننى لا يجب أن انجراً وأسأل أبى سؤالاً بسيطاً كان يلح على: «فيه إيه»؟.

كنت أريد أن أعرف مصدر هدير المدافع وأزيز الطائرات الذى يصم آذاننا، بينما تردد أمى عبارة واحدة: سترك يا رب.. سترك يا رب.. سترك يا رب.

كل هذا تم فى دقائق.. ما بين استيقاظنا وخروجنا جميعاً مع أبى وأمى وكل جيران شارعنا.. وكل سكان مدينتنا الصغيرة التى تنتمى إلى سيناء جغرافياً وإلى بورسعيد واقعياً وإدارياً، وجدنا أنفسنا أمام «المعدية» التى ستعبر بنا إلى بورسعيد، أكثر من ٣٠ ألفاً يريدون النجاة بأنفسهم واقتحام المعديّة، كان التدافع بيننا كأنه يوم القيامة العجائز الذين لم يجدن من يحملهن سقطن تحت الأقدام الزاحفة والأطفال الذين أفلتت أيديهم من أيدي ذويهم ضاعوا فى مياه القناة، فكيف استطاع أبى أن يمسكنى بيد ويحمل شقيقى على «ذراعه» الأخرى؟ بل كيف تمكنت أمى من حمل شقيقتى مع حقيبة الملابس ومرت من وسط هذا الزحام القاتل لنصل إلى بيت خالتى فى بورسعيد.. الأكثر أماناً من بورفؤاد؟!

ومع ذلك لم نكن نلتمس الأمان فى بيت خالتى، فقد كان مجرد محطة توهمنّا أنها أكثر أماناً من بيتنا، لكن هذا الوهم كان يتبخر مع اهتزاز البيت مع كل أزيز وإثر كل هدير وانفجار حتى ظننا أننا - حتماً - سنموت تحت انقاض هذا البيت

العتيق.

أخيراً اعتبرتنى أمى كبيراً وصارحتنى بأننا سنهاجر من بورسعيد إلى أى مدينة أخرى إذا احتل اليهود سيناء.

لكن كل الأخبار - التى سمعناها فى الراديو تشير إلى أن مخاوف أمى لا أساس لها. فكل دقيقة كنا نسقط عشر طائرات للعدو الإسرائيلى، وما هى إلا ساعات ويدخل الجيش المصرى تل أبيب ويلقى بإسرائيل فى البحر! كنا نهلل مع كل خبر انتصار، فخفت حدة التوتر لدى جميع أفراد العائلة، لدرجة أن زوج خالتى أراد أن ينافس بيانات الراديو فزعم أن طائرة إسرائيلية سقطت فى عزبة فاروق على بعد خطوات منا وأن الناس أسروا الطيار اليهودى وأشبعوه ضرباً! وطبعاً صفقنا لخبر - أو لفشر - زوج خالتى، بعدها عادت الابتسامة إلى وجه أبى وقال: خلاص لن نهاجر.. وسنظل هنا فى بورسعيد.

وينزل الحاج جمعه إلى الشارع يتسقط المزيد من الأخبار ليعود بأفضل مما زعمه زوج خالتى وليعرف ماذا تم مع الطيار الإسرائيلى الأسير.

ويعود أبى بعد ساعتين عابساً مُنكساً وجهه وكأنه أرتكب امرأ مخجلاً، حين سألناه جميعاً عما حدث لم يزد عن قوله: استعدوا.. سنترك بورسعيد ليلاً، يبدو أننا نحن الذين انسحبنا وليس اليهود، وران الصمت على الصغير والكبير لأكثر من نصف ساعة، قطعها رجال العائلة بأوامر صارمة بالاستعداد، كانوا قد عقدوا العزم على السفر عبر بحيرة المنزلة لأن الطريق الذى يربط بورسعيد بدمياط خطير.. وأخطر منه الطريق الذى يربطها بالاسماعيلية، فكلاهما فى مرمى نيران العدو.

- ومثلما تجمع سكان بورفؤاد أمام المعدية تجمع سكان بورفؤاد وبورسعيد - معا -

على شاطئ بحيرة المنزلة لتحملنا المراكب الشراعية الكبيرة إلى مدينة المطرية التابعة لمحافظة الدقهلية، كانت المراكب محملة بأكثر من حمولتها، فكنت ألمس مياه البحيرة بيدي وأنا جالس إلى جوار أبي، وأحيانا كانت المراكب التي تقلنا تجنح إلى منطقة ضحلة فيتدافع الرجال لإعادتها إلى العمق لتواصل رحلتها الطويلة جداً جداً.

ورغم البكاء والعيول والنحيب الذي أحاط بالمهاجرين، ضج الجميع بالضحك حين صاحت جدتي بعد طول صمت: «تلاقى أبولمة بتاع ساعة لقلبك هو اللي كان يبذيع البيانات الحربية في الراديو!».

ولكنه كان ضحك كالبكاء، لأن أبولمة نفسه لم يكن ليتفوق على ذلك الكذب - وليس الفشر - الذي قدمه لنا المذيع أحمد سعيد، والذي جعلنا نحن الصغار نحلم بأن يحتفظ كل منا بقطعة من إحدى طائرات العدو ويحولها إلى «دبلة فضة» في أصبعه دليلاً على انتصارنا!.

وهبطنا إلى شاطئ المطرية، واستقبلنا أهلها بالأحضان وبالأرز والسّمك المشوى، ومع هذه الحفاوة بدا أنه ليس لنا مكان.. حيث احتل ركاب المراكب التي سبقتنا ماتوفر لدى سكان هذه المدينة الفقيرة التي يعتمد سكانها على الصيد.

وقرر أبي أن يذهب بنا إلى كفر الشيخ مع جيراننا في بورفؤاد، وحملتنا الاتوبيسات التي وفروها لنا إلى إحدى المدارس بمنطقة ريفية اسمها «سيدى سالم». فى كل فصل دراسى وضعوا ثلاث عائلات.. كل عائلة تحتل ركنا مجهزاً ببطانية مفروشة على الأرض ومعها مخدتان صغيرتان.

أسبوع كامل قضيناه فى تلك المدرسة قام خلاله الناموس بما فشل اليهود فى فعله معنا، لم نضحك ضحكة واحدة خلال تلك الفترة، لم يضبط أحدنا متلبساً

بالابتسام، وكنت أهرب من هذه الكآبة إلى إحدى السواقي خلف المدرسة أستمع إلى خريف الماء من خلال دورانها محاولاً ألا أعود إلى الفصل الذي لم يكن يشبه فصل مدرستي في بورفؤاد.

وجاءني أخي الأصغر في مكاني الأثير ليخبرني بأننا سنذهب جميعاً إلى بلد اسمها سمود حيث يسكن هناك أقارب لجيراننا عرضوا استضافتنا حتى تهذا الأمور.

في هذه المرة حملونا على سيارة نقل أفرغت حمولتها من البطيخ في كفر الشيخ وحملتنا وهي عائدة إلى سمود. الله يلعن اليهود، هكذا كانت تردد أُمي وهي تتهمهم بأنهم السبب في تشريدنا بين بلاد الناس، وأثناء الرحلة من كفر الشيخ إلى سمود عرفنا الحقيقة التي لم يدعها الراديو، والغريب أننا كنا نشعر بأن هذه الهزيمة حانت بنا وحدنا نحن سكان بورسعيد وليس سكان المدن التي ذهبنا إليها، كنا نعتبر أنفسنا وطناً مستقلاً قائماً بذاته وإن المطرية وكفر الشيخ وسمود أوطان أخرى لم تذق - مثلنا - مرارة الهزيمة! ياله من شعور موحش زاد من قسوته أن التعبيرات التي كنا نراها على وجوه الناس - الذين لا ينتمون إلى بورسعيد - مختلفة تماماً عما يرتسم على وجوه أُمي وأبي وجيراني.

ولم يكن الحال في سمود أفضل كثيراً من الحال في كفر الشيخ فلقد حرم اليهود الراحة علينا في كل مكان.

ولم يطل مقامنا أكثر من أسبوع.. قالوا لنا بعده أننا يمكننا العودة إلى بورسعيد حيث تم اعلان وقف إطلاق النار، تصورت أن أبي وأُمي سيفرحان بالخبر، لكنهما ازدادا عبوساً وعرفت من حديثهما أن اليهود احتلوا سيناء كلها عدا بورفؤاد.. وأن جيشنا هرب إلى الضفة الغربية للقناه عدا عدة كتائب تمركزت في رأس العش.

■ لا سلام ولا كلام ■

ومرة أخرى تكرم سائق سيارة البطيخ بحملنا إلى بورسعيد ومثلما تركنا ديارنا فجراً عدنا إليها - أيضاً - فى الفجر، لكن السائق الكريم رفض أن يدخل بنا بورسعيد وتركنا على حدودها أمام المقابر ولم نجد وسيلة تنقلنا إلى بورفؤاد سوى عربة كاروا عائدة من الجبانة كان سائقها يردد طوال الطريق: وحدووه!.

الفصل الثالث

مروءة مع الموساد!

**.. وكان على بعد ذلك أن أخوض
حوارا طويلا مملا وشاقا، مع فتاة
إسرائيلية مدربة جيدا على قراءة
أغوار نفسك! **

كنا أول من وصل إلى صالة سفر ركاب الطائرة المتجهة إلى تل أبيب، المفروض أن كل خطوط الطيران الأجنبية تقلع من المطار الجديد، لكن الإسرائيليين أصروا على أن تقلع طائراتهم من نفس المطار الذى تقلع منه الطائرات المصرية.. تماماً مثلما فضلوا أن تكون سفارتهم فى القاهرة عبارة عن دور سكنى فى عمارة يسكنها المصريون. إنها نظرية الأمن الإسرائيلية!

وبينما كنت - ومعى ابراهيم مسلم - ننتظر بدء اجراءات السفر، عرفنا من المصريين الواقفين على مدخل صالة السفر أن طاقماً اسرائيلياً هو الذى سيتولانا من باب الصالة حتى باب الطائرة، ولن يكون هناك سوى ضابط الجوازات المصرى الذى سيختم جواز السفر بختم المغادرة!

حتى العمال المصريون الذى يحملون الحقائق يرتدون أفرولات مكتوب على ظهرها بالعبرية «العال»!

وبدأ زملاء الرحلة يتوافدون، اكثرهم يهود.. وبعضهم أمريكيين، لم يكن من بين الركاب من تشرب وجهه بماء النيل، أو من يحمل على جبهته شعار شمس مصر سوى شخصين: إبراهيم وأنا!

وها هو الفريق الاسرائيلى الذى سيتولى الإجراءات، ثماني فتيات فائتات وأربعة شبان منهم رئيس الفريق الذى رمانا بنظرة شاملة سريعة توقفت عندنا للحظات لأقرأ فيها سؤالاً: ما الذى أتى بكم إلينا؟

طلبت من زميلى أن ننتظر فى آخر الصف حتى لا يبدأ اليهود يومهم بنا، كانت كل فتاة إسرائيلية تتقدم من الراكب الواقف بالطابور وتأخذ منه جواز السفر والتذكرة وتقول له: إتبعنى، ويضع الراكب حقائقه على طاولات نقالة أعدت خصيصاً للخطوط الإسرائيلية بحيث يتم طيها عقب انتهاء الاجراءات، بعد أن

■ لا سلام ولا كلام ■

تتفحص الفتاه جواز السفر جيداً تدخل فى حوار طويل هامس مع الراكب لم نستطع من مكاننا الإمام بتفاصيله خاصة وأنا لم نكن خيرين فى لغة «الليبيز» أو قراءة الشفاه. كانت تفرج عن بعض الركاب بعد عشر دقائق تطول أحياناً مع آخرين، وتقصر مع الإسرائيليين، وفى كل الأحوال لم يفلت راكب واحد من هذا الحوار الذى كانت تديره الفتيات والشباب بمنتهى الجدية والصرامة والتجهم!

وحين أصابنى الدور تقدمت منى شقراء نحيلة تمشى كراقصة بالية من «البولشوى». للحظة تصورت أنها مهاجرة روسية إلى إسرائيل، لكن المجليزيتها الطليقة التى تحمل اللكنة العبرية جعلتنى أبصم بالعشرة بأنها مولودة فى إسرائيل وكان على بعد ذلك أن أخوض حواراً طويلاً مملاً وشاقاً مع فتاة مدربة جيداً على قراءة اغوار نفسك.

- جواز سفرك من فضلك؟

- اتفضلى

- أو.. مصرى؟!

- الحمد لله

- هل هذا الشخص معك؟

- نعم.. انه زميلى المصور.

- هل يمكنه التحدث بالانجليزية؟

- اعتقد ذلك.

- حسناً.. سنحضر له من يتحدث معه.. والآن هات حقيبتك واتبعنى إلى هذه

الطاولة.

■ لا سلام ولا كلام ■

- ولماذا لا يكون زميلى معى خاصة ونحن فى مهمة مشتركة؟
- اجراءاتنا تقضى بأن ينهى كل راكب اجراءته بمفرده.
- حتى لو كنا فريقاً واحداً؟.
- لا شأن لنا بذلك.
- أنا تحت أمرك.
- هل هذه أول مرة تسافر إلى إسرائيل؟.
- نعم
- وما سبب سفرك إلى هناك؟.
- مهمة صحفية.
- المهمات الصحفية أنواع.. فما هى مهمتك على وجه الدقة؟.
- استكشاف مستقبل السلام فى المنطقة عقب اغتيال رايبين والعمليات الانتحارية التى قام بها أفراد حركة حماس فى القدس وعسقلان وتل أبيب.
- حسناً.. من الذى حصل لك على التأشيرة؟.
- أنا حصلت عليها بنفسى من سفارتكم.
- ومن حجز لك تذكرة السفر؟.
- موظف بالعلاقات العامة بجريدتى؟.
- إذن جريدتك هى التى تمول هذه الرحلة.. اليس كذلك؟.
- نعم.

■ لا سلام ولا كلام ■

- ما اسم هذه الجريدة؟.
- أخبار اليوم.
- انها مشهورة جداً على مستوى العالم
- شكراً لهذه المجاملة
- ما هي المدة التي تنوى قضاءها في إسرائيل؟.
- أسبوع.. وربما عشرة أيام.
- هل لديك قائمة بالأشخاص الذين ستقابلهم هناك؟.
- نعم.
- أين؟.
- هنا.. في رأسى.
- هل كلهم إسرائيليون؟.
- بعضهم إسرائيليون وبعضهم عرب.
- عرب من أى نوع.. أقصد عرب إسرائيل أم عرب المناطق؟
- عرب الحكم الذاتى.
- من تتوقع أن ينتظرك فى مطار بن جوريون؟
- اعتقد أن موظفاً بسفارتنا سيكون هناك.
- وهل أعدت سفارتكم كل المقابلات؟.
- ليس بعد.

■ لا سلام ولا كلام ■

- وهل تعتقد أن المسئولين الإسرائيليين الذين تود مقابلتهم سيساعدونك فى مهمتك؟.
- آمل أن يفعلوا.
- لا داعى لانزعاجك هكذا إنها مجرد اجراءات أمن لتأمين ركاب الطائرة.
- ولكن أسئلتك استخبارية وليست تأمينية، ومن المؤكد أننى لن استخدم طائرات العال مرة أخرى.
- حتى ركاب الطائرة المصرية يواجهون ذلك ولكن فى مطار بن جوريون.
- أن يتم ذلك عندكم شئ.. وأن يتم هنا - عندنا - شئ آخر يغيظ.
- حسنا.. ماذا تحمل فى هذه الحقيبة.. لاتفتحها؟.
- ملابس تكفينى.. أوراق.. أقلام وجهاز تسجيل وأجندة مواعيد وأدوات حلاقة ومعجون أسنان واسبراي، وزجاجة عطر وشبشب.
- هل انت الذى أعددت حقبتك بنفسك؟.
- زوجتى ساعدتنى.
- متى أعددتها؟
- مساء أمس.
- وهل وجدتتها فى مكانها الذى تركتها فيه عندما استيقظت صباح اليوم؟.
- بالتأكيد.
- هل أعطاك أحد رسالة لتوصيلها إلى شخص ما فى اسرائيل.. أعنى هدية أو خطاب؟.

- لا.

- هل يمكن أن ألقى نظرة على جهاز تسجيلك؟.

- بكل سرور.

- منذ متى وأنت تمتلك هذا الجهاز الظريف؟.

- منذ عامين.

- إذن فأنت تعرف جيداً طريقة استعماله؟.

- نعم.

- لم تخبرني بأنك تحمل هذا العدد الكبير من شرائط الكاسيت؟.

- وهل يوجد جهاز تسجيل بدون شرائط؟.

- حسناً.. دعنا نجرب كيف يعمل هذا الجهاز.

وبعد أن جربت الجهاز كان قد مضى حوالى ٣٠ دقيقة فى هذا الحوار الذى كان يقطعه الشخص الذى يحاور زميلى ابراهيم ويسألها بعض الاسئلة باللغة العبرية وتجييب عليه، ثم قالت لى أخيراً:
شكراً جزيلاً ونتمنى لك رحلة موفقة.

كنت قد استهلكت خمسين منديل «كلينكس» لأجفف العرق الذى تصيب منى وأنا أقف أمام فتاه - لا تزن أكثر من خمسين كيلو جرام - كالتلميذ الذى تكاسل فى أداء واجب المدرسة.

وحين أفرجوا عن الحاج ابراهيم سألته عما فعلوا معه.. لكن المنديل الذى كان يمسح به عرقه أعفانى من الاجابة واكتفى هو بسؤالى مستهجنًا: «إيه الناس

■ لا سلام ولا كلام ■

دول؟».

لأن إسرائيل دولة تقتات الأمن فلا بد أن هذا الطاقم الذى عصرنا - ينتمى إلى الموساد وليس إلى شركة العال كما ادعت الشقراء، فهل انتهى كل شئ بعد أن ختمنا الجواز وذهبنا إلى دورة المياه.. وتجولنا فى الأسواق الحرة؟ أبداً!.

حين نادوا على الطائرة المتجهة إلى تل أبيب إتجهنا إلى الصالة الصفراء التى سنعتبر منها إلى أرض المطار، على بابها كانت تقف فتاة إسرائيلية أخرى، أجمل كثيراً من زميلتها وإن كانت أثقل ظلاً، سألتنى هذه اسئلة من نوع آخر - هذه المرة - أضحك.

- هل اشتريت شيئاً من كافيريا المطار؟.

- نعم.

- أين هو؟

- أكلته وشربته.

- ألم تشتتر هدايا من السوق الحرة؟.

- أبداً.

- هل اتصل بك أحد أثناء انتظارك وأعطاك رسالة لأحد فى إسرائيل.

- أبداً.

- وأنت ألم تجر أية اتصالات.

- نعم.. تحدثت مع زوجتى وابنتى.

- إذن تفضل جوازك.. تصحبك السلامة.

صعدنا - أخيراً - سلم الطائرة، كانت تقف بعيداً وحولها طوق أمنى رهيب، وكان فريق الأمن ينظر إلى كل راكب وكأنه سيختطف هذه الطائرة.. بينما كانت المضيفات الإسرائيليات يتسمن للركاب ابتسامة واسعة جداً وهن يشرن إلى مكان المقعد، تناقصت مساحة الابتسامة قليلاً حين وجدن أنفسهن أمامنا.. لكن الابتسامة لم تختف تماماً. وحين أغلقوا علينا باب الطائرة استعداداً للاقلاع نظرت من النافذة وصافحت بعيني جندي الأمن المصرى الذى كان يقف بجوار الطائرة، ملح ابتسامتى له فرد بأحسن منها، وكان هو آخر روح مصرية ألمسها قبل أن يحتضن السحاب طائرة العال الإسرائيلية.

ظننت - وليس كل الظن إثما - أن الخدمة على الطائرة ستعوض عذاب التحقيق على الأرض، بدافع الفضول كنت أتوق إلى معرفة ماذا سيقدمون للركاب. فوجئت بكل مضيفة قد شممت عن ساعديها وامسكت بسلة بين يديها تمر بها بين الركاب، لم أكن أعرف - وأنا فى منتصف الطائرة - ماذا تحمل تلك السلة، ولكن عندما اقتربت المضيفة اكتشفت أنها تحمل ساندوتشات لانشون صغيرة من الحجم الذى يقدمه محل «صب وای» للأطفال، ووراء كل مضيفة تحمل السلة مضيفة أخرى تحمل صينية عليها أكواب بلاستيك مثل التى يعطونها للمرضى فى معامل التحليل لأخذ عينات البول، ويبدو - من لون السائل - أن هذه الأكواب تحمل عصير برتقال. وحين وصلت إلينا «مائدة الطعام» هتفنا أنا وزميلي إبراهيم مسلم فى صوت واحد «نو.. ثانك يو» ثم ضحكنا عاليا لهذا الاتفاق الذى لم نتفق عليه.. ويبدو أن صوت الضحك أزعج بغض الحاخامات فنظروا إلينا شذراً وقرفاً.

قلت لابراهيم: ألا تأكل طعام اليهود؟ فقال: مستحيل طبعاً. فقلت له ولكن

■ لا سلام ولا كلام ■

هذا الساندوتش مجرد «تصبيره» وسيمرون علينا الآن بالولائم فقال لى ضاحكا:
«انت فاكر نفسك مسافر على الخطوط السعودية اصحى.. احنار راكبين فى طائرة
يهود».

شكرا يا حاج ابراهيم على هذه الملاحظة لقد سمعت كثيراً عن بخل اليهود
ولكنى لم أره بعينى إلا على هذه الطائفة. وكانت هذه هى الفائدة الثانية من فوائد
السفر.

الفصل الرابع

ذات مساء .. في قل أبيب

** لقد تغيرت أشياء جوهرية عقب اغتيال
رايين على يد المهووس اليميني الإسرائيلي عامير.
وها هو خلفه . الأقل حنكه . يواجه
امتحانا عسيراً ربما يطيح به إلى مقاعد
المعارضة بعد أن علا صوت زعيم اليكود الطائش **

ساعة إلا قليلاً مكثناها بين السحاب؛ انخفضت بعدها درجة الإضاءة داخل الطائرة مع إعلان داخلى بصوت نسائي «مزكوم» ناطق بالانجليزية: نقترّب الآن من مطار بن جوريون.. الرجاء ربط الأحزمة ووضع المقعد فى وضع عمودى وعدم التدخين.

بمجرد أن استقرت العجلات على أرض المطار جاءنا صوت الكابتن ليشرنا بسلامة الوصول وليشكرنا على استخدام طائرات شركة العال، وليحذرنا - بعد ذلك - من أن الجو خارج الطائرة ممطر عاصف ورعدى، وأن درجة الحرارة ١٨ درجة.

ياله من استقبال «حار» جعل زميلى ينظر إلى ممتعضاً قبل أن يقول: «أول القصيدة كفر» فقلت له «بل قل أول الغيث قطرة!».

قبل أن يفتح باب الطائرة، أخرج كل راكب معطفاً ثقيلاً لف به جسده، أما أنا وإبراهيم فلم يكن معنا مثل تلك المعاطف الثقيلة، فقط كنا نملك استعداداً لخوض تحقيق آخر على غرار الذى واجهناه فى القاهرة، ولكن من المؤكد أنهم لن يكونوا كرماء هنا فى مطار بن جوريون بتل أيب مثلما كانوا فى مطار القاهرة! ولم نستبعد أن يجريه معنا فرقة كوماندوز وليس فرقة بالية البولشوى كما حدث فى بلدنا!

لفحة هواء اصابتنى بمجرد أن واجهت باب الخروج، بل صفعة باردة جداً على وجهى يمينا ويساراً مما جعلنى أخفى «قفأى» جيداً. لم أنظر ناحية من وجه الصفعة فقد أعمتنى الرياح الصاخبة عن تبين أى شئ، الحق أننى حاولت العودة مرة أخرى إلى الطائرة لعلها تعود بى إلى القاهرة، لكن دفعة خلفية «مستقيمة» من الحاج إبراهيم جعلتنى فى منتصف سلم الطائرة قبل أن أفز داخل الاتوبيس المنتظر

■ لا سلام ولا كلام ■

أمامه، ولأول مرة يسألني الحاج ابراهيم بعد أن تلقى - مثلى - الصفعات:

«لماذا جئنا إلى إسرائيل؟».

الآن فقط تسألني؟! في اللحظة التي نسيت فيها كل شيء إلا أننا في أرض أعدائنا التاريخيين. آسف.. ليس لدى إجابة.. على الأقل في هذه اللحظة التي يجب أن نستعد فيها - فقط - للحظة التي تليها.

لم نجد «شوارزينجر» في انتظارنا ليجري معنا تحقيقاً «موسادياً»، كانت صالة الوصول شبه خالية إلا من بضع فتيات يقفن أمام منافذ لاستبدال العملة.. بالشيكِل الإسرائيلي. الحقائق وصلت إلى السير بسرعة رغم الجو العاصف، كل الركاب حملوا حقائبهم ورحلوا إلا نحن.. فمازالت حقيبتانا لم تصلا للسير بعد، حين داخلنا الشك سألنا أحد العمال في المطار عن مصير الحقيبتين فقال لنا: لا تقلقا.. كل شيء تمام!.

ووصلت الحقيبتان أخيراً، ووجدنا أنفسنا وحدنا أمام ضابطة الجوازات، قلت لزميلي: يبدو أن نون النسوه هنا هي الأصل.

عشرة منافذ للجوازات كل منفذ تحتله ضابطة أجمل من زميلتها، كان أمامنا هذه المرة فرصة للاختيار.. فكلهن خاليات تماماً، غافلت الحاج ابراهيم وتوجهت إلى أجمل واحده فوجدته مصمماً على الوقوف خلفي، فنادت عليه احداهن: «تعالى هنا». فلم يجد مفرأ من التوجه اليها.

أخذت منى الجواز.. ونقرت أمامها على «الكيورد» الخاص بالكمبيوتر، ثم عادت وتفحصت الجواز، ثم رمقتني بنظرة سريعة لتتأكد من أنني صاحب الصورة، ثم انتهت الموقف «بخبطة» من خاتم الجوازات على إحدى صفحات جوازي قبل أن تناولنى اياه دون أن تنطق بكلمة.

والآن فقط مسموح لنا بدخول أرض المعاد.

هل يمكن أن ينسى الملحق الاعلامى بسفارتنا ولا يرسل لنا من ينتظرنا؟.

سألت نفسى هذا السؤال وصوت كابتن الطائرة يتردد فى اذنى عن أحوال الطقس. لكننا وجدنا خواجه ذا بشرة حمراء يحمل ورقة مكتوب عليها إسمينا بالخط العربى العريض، سلم علينا الرجل بحياد تام قبل أن يخرج من جيب سترته تليفوناً محمولاً ويطلب رقماً لم يلبث أن تحدث مع من رد عليه بالعبرية، ثم ناولنى السماعة لكى ألتحدث مع الطرف الآخر الذى كان يتحدث بلهجة فلسطينية.

- آلو.. أنا موفق سائق التاكسى، اتفقوا معى فى السفارة على استقبالكما لكن سيارتى تعطلت فأرسلت لكما الخواجة «ياكوف».

- هل تقصد أن هذا الرجل الذى سيوصلنا إسرائيلى.

- نعم.. لاتخف أنه رجل طيب.

- ولكن ألا تعلم لماذا لم ترسل لنا السفارة احدى سياراتها مع أحد موظفيها؟.

- حقيقة لا أعلم غير أنهم كلفونى باستقبالكم وتوصيلكما إلى فندق «شالوم» على أن تعطيانى أنتما أجرة التاكسى. لكن الآن اعطوها للخواجة ياكوف.

- وكم تبلغ الاجرة من المطار إلى الفندق

- ٢٥ دولاراً.

- موفق.. هل انت متأكد من أن الخواجة ياكوف سيوصلنا إلى الفندق وليس إلى مكان آخر.

- لا تخف.. ثم لاحظ أنه يفهم كل كلمة قلتها لى الآن.. مع السلامة.

■ لا سلام ولا كلام ■

كان موقفا مخزياً من سفارتنا.. أو بالأحرى من الملحق الاعلامى الذى حادثته تليفونيا من القاهرة ليرتب كل شئ، وها هو يفى بوعده ويسلمنا إلى المجهول، ولم يكن أمامنا سوى خيار واحد وهو الاستسلام للخواجة ياكوف ليفعل بنا ما يشاء!.

لم أر فى حياتى أمطاراً غزيرة بهذا الشكل الذى وجدته خارج مطار بن جوريون، مطر لا تجدى معه المظلات حيث تتحول كل نقطة منه إلى إبرة تخرق أى حاجز. بحثنا عن أى مكان خارج المطار نلوذ به حتى يحضر السائق سيارته من «البارك». بعد لحظة اكتشفنا أننا نقف بين رجال أمن إسرائيليين.. بادرنا أحدهم بالسؤال بالعربى المكسر:

- مصريون؟.

- نعم.

- من أين؟.

- هل التحقيق هذه المرة خارج المطار.. شئ جميل!.

- ليس تحقيقاً.. أنا مصرى من باب الشعرية، ولدت هناك، واصدقائى مازالوا هناك وأراسلهم، ولا بد أنكم صحفيون.

- كيف عرفت؟.

- وهل يأتى من مصر فى هذه الظروف إلا الصحفيين.

- وهل تعرف السائق الذى معنا أيضاً؟.

- ياكوف.. نعم انه شخص رائع وسيكون فى خدمتكما وسيوصلكما إلى فندق «شالوم».

- وتعرف اسم الفندق أيضاً؟!

- ولكننى لا أعرف رقم الغرفة.. (ثم ضحك) لا تقلقا.. نحن نحب مصر وكل من يأتى منها.

هذه هى سيارة ياكوف. تاكسى أمريكانى فاخر آخر موديل، طبعاً ألسنا فى إسرائيل؟

هيا ضعوا حقائبكم فى حقيبة السيارة الخلفية، هكذا صاح علينا وهو يجلس إلى عجلة القيادة بعد أن فتح حقيبة سيارته الخلفية بضغطه على تابلوه سيارته.

وبينما نضع حقائبنا أقترب رجل الأمن الإسرائيلى الذى كان يحادثنا وتحدث مع ياكوف بالعبرية، لكننى استطعت أن أستنتج أنه يوصيه بنا على اعتبار أننا وهو بلديات، فقد كان رد فعل ياكوف - ذو الملامح الاوربية - هو الابتسام والاشارة بسبابته إلى عينيه بما يعنى «حاضر.. من عينى».

وانطلق بنا ياكوف لايلى على شئ، الأمطار الغزيرة لم تكبح جماح سيارته الامريكية التى برمجت - على ما يبدو - على أن تنهب الأرض نهباً، خفت أن أطلب منه تهدئة السرعة وقلت لنفسى: لماذا لا ألتجاذب معه أطراف الحديث وتلقائياً سوف يخفف من سرعته حيث سينقسم تركيزه بين القيادة وبين الحديث.. هكذا خمنت، لكن خاب ظنى مع ياكوف، فلم تكن به أية رغبة فى الحديث كما لو كان يتبع تعليمات صارمة، فحين سألته عن المسافة بين المطار وتل أبيب فقال: ٢٥ كيلو مترا.. ولم يزد على ذلك. عدت لأسأله مرة أخرى: هل أنت يهودى شرقى أم يهودى غربى؟ فقال لى بلهجة قاطعة: أنا إسرائيلى. لم يتسرب إلى اليأس، فقد تعلمت أن أول سائق تاكسى هو مفتاح المعرفة للبلد الغريب الذى تزوره لأول مرة. ولكن يبدو أن ياكوف «قفل» وليس مفتاحاً، فحين حاولت أن أقدم له سيجارة لم يشكرنى بل قال لى من فضلك لاتدخن فى سيارتى فالتدخين يؤذى

صدرى!.

أصر ياكوف على التزام الصمت طوال هذا الطريق المعتم الذى يربط بين بن جوريون وتل ابيب، كانت هناك اصلاحات فى الطريق جعلتهم يضيقون من عرضه. لكن الرجل أصر على الانطلاق بسرعة رهيبه وكأنه يقودنا إلى حتفنا.

على البعد بدت أنوار كثيرة قدرت أنها تل ابيب. فاضطرت ان أتأكد منه فاكتمنى بهز رأسه.. «ياواد يا تقيل!».

إذن هذه هى تل ابيب التى كان الجيش المصرى سيدخلها عام ١٩٦٧ ويلقى بسكانها فى البحر المتوسط.

لماذا تذكرت الآن صوت ذلك المديع «الخنجورى» وهو يصيح: أمجاد يا عرب أمجاد. نحن الآن على أبواب تل ابيب. اقتحموا يا رجال!؟.

لماذا تذكرت الآن وأنا فى هذه السيارة التى يقودها عدو لى سيارة توزيع الصحف التابعة لأخبار اليوم التى حملتنا من بورسعيد إلى دمياط قبل ساعات من اندلاع معارك رأس العش. كان اليهود يريدون غزو بورفؤاد لتكون سيناء - كلها - فى أيديهم. اقتحموا رأس العش بالدبابات. لكن قبل أن يحدث ذلك جمعنا الاستاذ فوزى الكتبى ناظر مدرسة النصر الابتدائية ببورفؤاد وأجرى لنا امتحانا صورياً قبل امتحانات آخر العام بشهرين.. بعدها أعطانى الاستاذ محمود بركات شهادة تفيد بأننى نجحت فى الصف الخامس الابتدائى، سألته لماذا هذه الشهادة مبكراً، فربت على كتفى وقال لى: غداً سنترك بورفؤاد ونهاجر لأن حرب الاستنزاف بدأت ولن نتركهم يهناون بما حققوه، وعندما لاحظ دهشتى مما يقول، تدارك بسرعة وقال: غدا - وربما اليوم - ستسافر مع أبيك وأمك وأخوتك إلى بلد آخر وستنضم إلى مدرسة أخرى ستحصل منها على الابتدائية.

■ لا سلام ولا كلام ■

ومثلما حدث فى هجرة ٦٧ حدث فى هجرة الاستنزاف، لكن هذه المرة لم نذهب إلى بحيرة المنزلة، فقد صممت أمى على أن نهجر إلى دمياط حيث أقاربها هناك بدلاً من التشرّد فى بلاد لا نعرف فيها أحداً.

لكن أين هو السائق المجنون الذى يقطع طريق دمياط المطل على البحر المتوسط؟.

لم يكن هناك غير سائق أخبار اليوم الذى جاء مبكراً ليفرغ نصف حمولته فى بورسعيد والنصف الآخر فى دمياط خاصة بعد أن ضربت إسرائيل خط السكك الحديدية، فأصبح قطار الصحافة ممنوعاً من دخول بورسعيد.

ووجدت نفسى مع أبناء الجيران لمجلس فوق الجرائد، ولم تكن فى حال تسمح لنا بقراءة تفاصيل المانشيت الأحمر «المعركة مستمرة».. فقد كان وجودنا أهم من التفاصيل! فوق الجرائد فى حد ذاته

السيارة تسير بسرعة مجنونة، السائق يحاول أن يهرب بها من أقدارنا! والقنابل تتساقط على مبعدة ومقربة منا. وكادت تنقلب بنا السيارة مع ارتطام «دانه» ١٠٠٠ رطل على بعد عشرة أمتار منا جعلت الحاج فتحى جارنا يصيح لوالدى يقول: «اكسر بصلة يا جمعة». لم أعرف معنى هذا التعبير - اكسر بصلة - إلا بعد سنوات، لكننى أذكر أن أبى لم يفعل بل رفع سبابته إلى السماء مردداً الشهادتين ثم أحضننى أنا وأخى وأختى بين ذراعيه.

وحتى تكتمل المأساة توقفت السيارة فجأة وهبط أبى والحاج فتحى ليستكشفوا ما حدث. لا تخافوا لقد أصيبت إحدى العجلات «بشظية» وسنغيرها فى الحال. حاول السائق أن يطمئنا قبل أن يبدأ مع الرجال فى استبدال العجلة، ومع كل صوت طائرة يقترب كنا نقول: هذه هى النهاية، ومرت الدقائق كدهر، ونحن نلوذ

■ لا سلام ولا كلام ■

ببعضنا البعض حتى صعد أبى وجارنا وهما يرددان: الحمد لله.. الحمد لله.
وبدأت الرحلة من جديد، لكن بسرعة أبطأ فسرّها أبى بأن السائق لا يملك
«عجلة إستين» أخرى، والأفضل أن يُبطىء. وكان هذا يعنى أن نموت ببطء، ولم
نصدق أننا سنصل إلى دميّاط ونحن نستقل هذه السلحفاة.

وأخيراً وصلنا إلى فندق «شالوم» بتل أبيب، إنه يطل - أيضاً - على البحر
المتوسط الذى ارتبطت حياتى به، تحدث ياكوف وقال لى: هذا هو رقم تليفونى
المحمول.. إذا أردت تاكسيّاً اتصل وسأحضر لك على الفور.
شكراً يا حبيبى.. خذ فلوسك وألف سلامه. قالها ابراهيم مسلم بالعربى
مترجماً رد فعلى الذى لم أقله للسائق اليهودى.

الامتار الخمسة التى تفصل بين التاكسى وباب الفندق كانت كفيلة باغراقنا
بالمياه، وحين وجدنا أنفسنا بالداخل سمعنا صوتاً مصرياً يقول لنا حمداً لله على
السلامة، كان الملحق الاعلامى الذى حادثته من القاهرة وأحمد الله أننى نسيت
اسمه الآن ولم أحاول أن أتذكره، لقد كان ذلك الرجل عاملاً معوقاً بدلاً من أن
يكون عاملاً مساعداً لنا فى مهمتنا الصحفية.

الشيء الوحيد الذى فعله لنا هو حجز غرفتين فى هذا الفندق، وحين صعدت
إلى غرفتى قلت له سأبدأ العمل من الآن لأننى مطالب بإرسال رسالة صحفية إلى
أخبار اليوم غداً. من فضلك جهز لى موعداً مع السفير فى أسرع وقت.

وانصرف الرجل وتركنى أتابع الموقف من التليفزيون الاسرائيلى تارة، ومن
الراديو الاسرائيلى تارة أخرى، كانت طبول الحرب تدق فى الإعلام الاسرائيلى

■ لا سلام ولا كلام ■

بعد العملية الانتحارية التي قام بها شاب ينتمى إلى حركة حماس مُفجرا نفسه في اتوبيس بشارع «ديزبخوف» بتل أبيب، أنها العملية الثالثة على التوالي بعد عمليتي القدس وعسقلان.. أو اشكيلون كما يطلق عليها الإسرائيليون.

لاشئ هنا غير نشرات الأخبار وكلها تنقل ردود أفعال الشارع الإسرائيلي والمستولين الإسرائيليين والمعارضة الإسرائيلية على العمليات الانتحارية التي راح ضحيتها الأبرياء من النساء والأطفال، ونقلت الصور التليفزيونية الهلع والرعب المرسومين على وجه المواطن الإسرائيلي.

ولأن «الميديا» الإسرائيلية عبقرية، خاصة في إظهار المجتمع الإسرائيلي بأنه مجنى عليه مهيض الجناح أمام عمليات حماس الانتحارية، فقد تحول العالم كله إلى صف إسرائيل ضد الفلسطينيين - كل الفلسطينيين - الذين كفروا بنعمة السلام وعادوا لتكدير صفو المواطن الإسرائيلي.

لكن هذه «الميديا» العبقريّة كانت - كما بدا لى - اشبه بالقارب الذى تجذبه أياد مختلفة إلى جهات متباينة، وصدق من قال إذا اجتمع يهوديا فسيتمخض الاجتماع عن ثلاث جهات نظر مختلفة! فكيف يكون الحال والاجتماع اليهودى يضم المثات؟!

كل الخطوات التي أعدتها في رأسى تداخلت وأنا أتابع الموقف من الراديو والتليفزيون ونحن فى الثانية عشرة بعد منتصف الليل.

كل أوراقى تبعثرت ولا بد من إعادة ترتيبها قبل أن تشرق الشمس وأهبط من فندقى إلى الشارع، ثم إلى السفارة، ثم إلى الشارع الإسرائيلى، ثم إلى الشارع الفلسطينى.

لقد تغيرت أشياء جوهرية عقب اغتيال رابين على يد مهووس يمينى إسرائيلى

اسمه ايجال عامير، وها هو خلفه - الأقل حنكه - بيريز يواجه امتحاناً عسيراً للسلام - ربما يطيح به إلى مقاعد المعارضة بعد أن علا صوت بنيامين نتانياهو زعيم الليكود «الطائش».

كل ما فعله بيريز - لحظة وصولي إلى تل ابيب - هو فرض طوق أمني رهيب على مناطق الحكم الذاتي الفلسطينية، ممنوع الدخول، وممنوع الخروج. سجن كبير يوشك أن يتحول إلى مجاعة مع عدم دخول مواد غذائية من منفذ رفح، فضلاً عن المنافذ المطلة على إسرائيل.

لكن الشارع الإسرائيلي استقبل خبر الإعلان عن انعقاد قمة لمحاربة الارهاب بشرم الشيخ بفرحة طاغية، وفجأة اختفى صوت طبول الحرب، وحل محله صوت الحكمة، وتزايد الأمل في فك الطوق الأمني قليلاً خاصة عقب الإعلان عن قيام الشرطة الفلسطينية بالقبض على ٥٠٠ من أعضاء حركة حماس، وسبعة آخرين من أصل ثلاث عشرة حددتهم إسرائيل بالإسم، ومع تأكيدات شيمون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلي بأن الطوق الأمني على الضفة الغربية سيظل قائماً حتى يتم تعديل الميثاق الفلسطيني وتنقيته من المادة الداعية لتدمير إسرائيل، بدأ الاقتصاد الإسرائيلي يتصدع نتيجة غياب العمالة الفلسطينية التي كان يعتمد عليها.. ونتيجة - أيضاً - لانخفاض عدد السائحين.

وبدأ لي - أيضاً - قبل أن أهبط بنفسي إلى الشارع أن إرهاب حماس جعل بيريز وعرفات - لأول مرة - في قارب واحد يبغى الوصول إلى شاطئ السلام، بينما تتقاذفه أمواج قادمة من عدة اتجاهات.. أخطرها المعارضة الإسرائيلية التي تبحث عن الفوز في انتخابات مايو المقبل، وهذا لن يتحقق إلا على جثة بيريز، فالمعارضة تلعب على أن المواطن الإسرائيلي يهتم بأمنه الشخصي في المقام الأول.. فلا معنى

■ لاسلام ولا كلام ■

لسلام لا يحقق هذا الهدف.

وعلى طريقه عتاب الشركاء يعتب بيريز على عرفات بأنه لم يحلل الوضع بصورة صحيحة فيما يتعلق بحماس، لكن عرفات لم يرد على العتاب، لأن شريكه كان مشغولاً بالرد على اتهام الشارع الإسرائيلي له بأنه باع لهم «تروماي السلام» فلم يحصدوا إلا الذعر، إذن المواطن الإسرائيلي ينظر إلى السلام نظرة مختلفة تماماً عن نظرتي ونظرتك، وربما نظرة العالم كله. وهذا أول انطباع خرجت به وأنا جالس في غرفتي.

وتأكيد على تداخل الاصوات الإسرائيلية حتى داخل الأسرة الواحدة، ومع ارتفاع صوت الحكمة الذي ينادى بالتعاون مع السلطة الفلسطينية في تعقب أعضاء حركة حماس بدلاً من أظهارها بموقف المتخاذل، أثار تصريح رعان كوهين عضو الكنيست ورئيس التكتل الحكومي حفيظة عرب إسرائيل ووزراء حكومة بيريز على حد سواء. قال كوهين: على العرب أن يقفوا مع أنفسهم بعد ثبوت أن الذي نقل المخرب - يقصد الشاب الانتحاري - إلى تل أبيب ليقوم بعملية شارع «ديزبخوف» كان عربياً.

وكان عيزرا فايتسمان الرئيس الإسرائيلي هو أول الرافضين لهذا الاتهام حيث رد بقوله: إننا لا يجب أن نكيل التهم ونضع الجميع في صف الاعداء، ويكفى أن من بين ضحايا حوادث الإرهاب ضابطين وجندي من العرب الذين ينتمون إلى البدو والدروز ويخدمون في جيش الدفاع الإسرائيلي.

وبينما كان بيريز مشغولاً باستقبال وزيرى خارجية فرنسا وألمانيا كان وزيراه يوسى شاريد وزير البيئة وحاييم رامون وزير الداخلية يؤكدان على نفس المعنى الذى ساقه فايتسمان، بل أن شاريد زايد على رئيس دولته بقوله أن العرب

■ لا سلام ولا كلام ■

مواطنون مثلنا تماماً وشركاء لنا فى دولة إسرائيل التى تضم اليهود والمسلمين! .

ولأن هذا الكلام - كله - عبارة عن دق «إسفين» بين عرب إسرائيل الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية وبين الفلسطينيين المرابطين فى مناطق الحكم الذاتى، عاد أصحاب هذا الكلام الوردى واختلفوا حين اتجه الحديث إلى دور السلطة الوطنية الفلسطينية الوقائى ضد العناصر الناشطة من حركة حماس. فبينما يرى ساريد أن السلطة الفلسطينية تقوم بواجبها على خير وجه، يرى إيهود باراك وزير الخارجية وإفرايم شوحط وزير المالية أنها مقصرة ولا تقوم بدورها كما ينبغى.

وهكذا قدر على أن أتعامل مع آراء متصارعة فيما بينها.. متصارعة مع الجبهات المنافسة، لكنها تتفق فى النهاية على شئ واحد: الهاجس الأمنى، هذا الهاجس الذى لن يطراً عليه أى تغيير منذ قيام دولتهم عام وحتى قيام الساعة، فإذا كانت مهمتى الصحفية هى البحث عن مستقبل السلام فى المنطقة فيجب أن أبحث أولاً عن هذا الوهم.. أو هذه «الفويا» المسماة بالأمن. كيف يمكن أن تتحقق مع عدم أخذ حقوق الآخرين فى الاعتبار.

والآن يجب أن أنام جيداً قبل أن أقابل سفير مصر فى إسرائيل.

الفصل الخامس

عسقلان... وليس أشكيلون

** ما تحقق من إنجازات السلام كان
مجرد خطوة أولى قضى عليها،
وبالتالى قضى على آمال الشعب
الفلسطينى فى تقرير مصيره خلال
المرحلة الثانية من اتفاق السلام**

■ لا سلام ولا كلام ■

لم تكن عبارة «صباح الخير» التى نقولها فى مصر حين نستيقظ هى الكلمة المناسبة هنا للتعليق صباح تل ابيب؛ الذى لا يعرف الشمس ولا يعترف بالدفع، حتى كلمة «بيكرتوف» التى ايقظنى بها موظف الفندق فى السادسة صباحاً بما يعنى صباح الخير؛ لم تثر فى إلا ذكريات مسلسل رأفت الهجان حينما كانت تقولها استر بلينسكى: بيكرتوف أدون سمحون. ويبدو أن موظف الفندق أدرك أن الكلمة لا تحتاج إلى رد فسارع باغلاق السماعة فور التأكد من استيقاظى.

مازالت زخات المطر تواصل رسائلها فى محاولة يائسة لاطفاء النار التى تأججت بها صدور كل من يعيش فوق هذه الارض: غاصباً أو محتلاً أو مضطراً أو زائراً أو متصوراً أنها أرض المعاد.

انه ليس الجو المناسب لمقابلة الناس والحديث معهم. أمطار كهذه فى مصر لا بد أن تحدد إقامة الجميع فى منازلهم، لكن هنا يلهث الناس وراء الأحداث المتسارعة مع نشرات الأخبار.

وحين هبطت إلى بهو الفندق كان فى انتظارى شخصان.. الأول محمد عبد الغفار - الموظف بالسفارة الذى تبرع لتوصيلنا إلى السفارة بسيارته، والثانى هو الخواجة ديفيد صاحب الفندق الذى قال لى - بالعربى المكسر - «نورت تل ابيب يا حبيبى». ثم أردف قائلاً: أنا مصرى.. اسكندرانى، وأذهب كل عام إلى مصر حبيبتى.. وكل المصريين الذى يأتون إلى إسرائيل يأتون هنا فى فندقى، انت ليه حجزت غرفة «دبل» وحدك؟ فيه غرف «سنجل» أرخص كثير؟.

وطبعاً لم أقل له أن الذى تولى الحجز هو الشخص الذى نسيت اسمه والذى يفترض فيه معاونتنا، لكن ديفيد نفسه لم ينتظر الاجابة وأمر بتحويل حقائبى إلى غرفة أخرى بسرير واحد وبسعر أقل ٢٠ دولارا فى الليلة الواحدة!.

نظرت إلى محمد عبد الغفار أشكو له ما فعله بنا رئيسه، فنظر واجماً إلى الأرض فى محاولة صامتة للاعتذار عن ذنب لم يرتكبه.

الآن استطيع أن أتعرف على تل أبيب من وراء نافذة السيارة. ورغم ضبابية الزجاج لاحظت أن مباني تل أبيب تحمل طابعاً واحداً يشبه القشلاقات العسكرية، وأن اللون الابيض المائل إلى الرمادى هو لون المباني جميعها.

كل البيوت عبارة عن ثلاثة أدوار ليس أكثر، وبالتالي كل الشوارع متشابهة تماماً، سألت محمد عبد الغفار عن المدة التى يقضيها الفرد حتى يحفظ الفرق بين مكان بيته ومكان عمله فضحك كثيراً وقال: أنظر.. هذا برج سكنى مزود بأسانسير مثل الأبراج الحديثة التى ظهرت فى القاهرة.

لم أسترح إلا حين عرفت لماذا يسكن الإسرائيليون فى هذه القشلاقات سابقة التجهيز، وكما توقعت كان السبب هو نظرية الأمن الإسرائيلية، فهذه المساكن الواطئة التى لاتعرف الشرفات مساكن جاهزة تكلفتها أقل من المساكن الخرسانية، فإذا حدث ودخل العرب تل أبيب مثلما كان يقول المذيع إياه لما خسروا الكثير بتركهم لهذه المساكن! أما حكاية الأبراج السكنية التى بدأت تظهر فى تل أبيب فقد عرفها اليهود بعد توقيع معاهدة السلام مع السادات وبدأوا يأمنون - قليلاً - على حياتهم ويرتفعون بقامات مساكنهم! ها هو علم مصر يرفرف - رغم البلب - فوق سطح إحدى البنايات «التل أبيبية»، لا يميزه عن المبنى المجاور سوى كشك الحراسة والياطرة المكتوب عليها سفارة جمهورية مصر العربية.

رجال الحراسة فى الكشك من الشرطة الإسرائيلية لم يسألونا «رايحين فين»، ملامحنا تقول أننا مصريون ومتوجهيه إلى سفارتنا. وعندما طرقتنا باب السفارة فتح لنا موظف أمن مصرى. ولأنه لا يعرفنا حيث كنا قد تركنا محمد عبد الغفار

■ لا سلام ولا كلام ■

ليبحث عن مكان يركن فيه سيارته. سألنا بطريقة أفراد الأمن المتشككة: «رايحين فين.. وعازين مين».

يا أخى قل الحمد لله على السلامة، اليهود الحراس عندهم تمييز عنك، أكيد احنا مصريين وداخلين سفارتنا، مش مهم لمن.. أى شخص مصرى والسلام.. لذلك كان يجب أن تستقبلنا بطريقة أفضل.

قلتها له، وحاولت أن أكمل لإفراغ شحنة الغيظ التى شحنتى بها استقبالة الردى، ثم تراجع وتقلت لنفسي: إذا كان السفير لم يأمر بإرسال سيارة السفارة لاستقبالنا فى المطار، وإذا كان المستشار الاعلامى لم يكلف نفسه بالذهاب إلى المطار. فضلاً عن توريطنا فى غرفة سعرها فى الليلة ٨٠ دولار، فماذا أنتظر من موظف أمن عمله أن يقول للناس: «أنت رايح فين.. وبس».

ولم يسمح لنا رجل الأمن بالدخول إلا عندما لحق بنا محمد عبد الغفار وقال له: «دول معايا».

ما هذا؟ هل عدوى هاجس الأمن انتقلت إلى سفارتنا بحكم المكان؟ إلى هذه الدرجة يصبح هذا الهاجس أعمى غير قادر على التمييز بين وجوه المصريين ووجوه أفراد حركة حماس الانتحارية؟

من سوء الحظ أننا يجب أن نقابل السفير عن طريق ذلك المستشار الاعلامى. كنت أتمنى وجود الاستاذ لطفى عليه الذى سمعنا عنه كثيراً فى مصر وعن التسهيلات التى يقدمها للصحفيين لدماثته وثقافته وعشقه لعمله. لكنه - من سوء حظنا - كان فى إجازة بالقاهرة تنتهى يوم مغادرتنا لإسرائيل.

وأنا جالس فى انتظار وصول السفير لاحظت شيئاً فى سفارتنا.. وسمعت أشياء من راديو إسرائيل؟!

لاحظت أن عمل الملحق الاعلامى يقتصر على ترجمة الصحف العبرية وإرسالها إلى هيئة الاستعلامات دون أن يقول رأيه أو يحلل ما يقرأه ويراه. إذن المؤهلات المطلوبة لشخص يقوم بهذا العمل هي إجادة اللغة العبرية فقط.

وهذا يعنى أن هذا الرجل لم يقصر معنا. فاستقبالنا وتهيئة الظروف لنا ليس من وظائفه وما كان يقوم به زميلة لطفى عليه للصحفيين الذين سبقونى إلى إسرائيل كان فضلاً وتفضلاً منه! هذا - بالطبع - مع عدم وضع واجب المصرى على المصرى فى الاعتبار، فهناك أناس غير مدربين على عمل الواجب الذى يقتضيه العرف ولا تنص عليه اللوائح.

أما ما سمعته من راديو إسرائيل فهو أن المعارضة الإسرائيلية حققت نصراً مبدئياً على حزب العمل فى الكنيست الذى وافق اعضاؤه على مشروع قانون يقضى بإغلاق بيت الشرق بالقدس، القرار جاء بناء على اقتراح تقدم به نائب عن الليكود وحصل على أغلبية ٤٩ ضد ٣٦ فى التصويت، ولم يكن هذا هو النصر الوحيد، فقد سبقه نصر آخر عندما اعترف محمد أبووردة المتهم بتجنيد عناصر انتحارية لحماس بأن الغرض من تلك العمليات هو ضرب حكومة حزب العمل وتهيئة الظروف لعودة تكتل الليكود للحكم.

الأكثر من ذلك أن نتانيا هو وبنى بيجين - ابن مناحم بيجين - وصفا شيمون بيريز بألفاظ غير مهذبة تراوحت بين السفالة والوضاعة، ووصلت إلى أنه ثرثار لا يفعل شيئاً غير المسكنة. إنه ضرب تحت الحزام يؤكد أن بيريز بدأ طريق الهبوط من القمة إلى السفح بإيقاع كرة الجليد.

ولأننى أعرف أن سفيرنا محمد بسيونى صديق بيريز بحكم وجوده ١٥ عاماً فى السفارة المصرية بتل أبيب وددت لو أعرف كيف ينظر إلى مستقبل كرة الثلج

الهابطة التي تحمل اسم بيريز.

العلم المصرى وصورة الرئيس مبارك فى مكتبه انسيانى الاستقبال الحياذى الذى استقبلنا به، كنت أتصور أن سفير مصر فى إسرائيل لابد أن يستقبل الصحفيين المصريين استقبالا اكثر حميمية وأقل رسمية لكن ما علينا.

قلت له: يبدو أن أصدقاءك فى حزب العمل فى موقف لا يحسدون عليه.

فقال: حزب العمل كان يتمتع بثقة الرأى العام الإسرائيلى قبل العمليات الانتحارية الأخيرة فى القدس وأشكيلون - يقصد عسقلان - وتل ابيب. وكان الفاصل بين بيريز وبين نتانياهو زعيم الليكود كبيراً جداً حيث كان اهتمام الشارع الإسرائيلى بالسلام كبيراً، وحققت حكومة بيريز انجازات كبيرة فى مجالات السلام والتعليم والبطالة والنمو الاقتصادى كل هذا تغير الآن وبالتحديد بعد يوم ٢٥ فبراير الذى شهد بداية العمليات الانتحارية التى جعلت الشارع الإسرائيلى فى حالة غضب شديدة جداً، فالمعروف أن اهتمامات الشارع الاسرائيلى بموضوع الأمن الشخصى هو اهتمام أساسى، فإذا شعرت الأم الإسرائيلية أن أولادها مهددون فهذا يعنى ضوءاً أحمر ضد الحكومة.

مازال محمد بسيونى يستعرض الموقف فى إسرائيل: عندما جاءت حكومة رابين وعدت بتحقيق السلام وصولاً إلى الأمن الشخصى للمواطن الإسرائيلى، وعلى هذا الاساس باركها الشعب الإسرائيلى وهى توقع الاتفاقيات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتم إقرار الحكم الذاتى للفلسطينيين، فردوا على ذلك بالانفجارات والعمليات الانتحارية مما حمل المواطن الإسرائيلى على الاعتقاد بأن الحكومة أخلفت وعدها، خاصة وأن عدد الحوادث الانتحارية التى وقعت عقب التوقيع على اتفاق اوسلو بلغ ٢٢ حادثاً تسببت فى خسائر كثيرة لإسرائيل، إذن لم

■ لا سلام ولا كلام ■

يأت السلام بالأمن للمواطن الإسرائيلي.

قلت للسفير بليونى: هذا يؤكد ملاحظتى بأن حكومة حزب العمل فى طريقها إلى الغروب.

فرد على بقوله: للأسف الشعب لا يصوت لصالح إنجازات حكومة ولكن يصوت اعتراضاً على شئ ما اقترفته تلك الحكومة. وعلى هذا الأساس أقول أن ما تحقق من إنجازات السلام كان مجرد خطوة أولى قضى عليها، وبالتالي قضى على آمال الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره خلال المرحلة الثانية من اتفاق السلام. فكما تعلم هناك مرحلة أولى ومحصلة نهائية تبدأ يوم ٤ مايو المقبل.

وما حدث الآن هو تراجع لأسهم معسكر السلام وارتفاع لأسهم معسكر اليمين، وأستطيع أن أقول أن استمرارية تطبيق ما تم الاتفاق عليه مهدد بالخطر، المفروض أن إسرائيل كانت ستعيد الانتشار فى الخليل بنهاية مارس بعد أن أعادته فى ست مدن، وأظن أن إعادة الانتشار فى الخليل لن تتم بل سيتم تأجيل مباحثات السلام.

قلت لسفيرنا لدى إسرائيل: الاجراءات التى لجأت إليها إسرائيل كرد فعل اتسمت بالغضب والاندفاع أكثر من الحكمة.

فقال: الخطوات التى اتخذتها إسرائيل كانت لتحقيق الأمن الشخصى للمواطن الإسرائيلى، لقد فرضوا طوقاً أمنياً على كل الضفة الغربية وقطاع غزة، وطبقوا خطة الفصل (٢) كيلو على طول الخط الأخضر من جنين شمالاً وحتى الخليل جنوباً). كما أغلقوا بعض المؤسسات التعليمية التابعة لحركة حماس، والتى كانت تستخدم لعمليات التحريض. وقاموا بعملية تمشيط واسعة للقضاء على البنية التحتية لحماس فى المنطقة (ب) وهى المنطقة القروية خارج حدود المدن الست التى

■ لا سلام ولا كلام ■

اعيد الانتشار بها وهى جنين ونابلس وطولكرم وقلقيلية ورام الله وبيت لحم. هذه المدن المسئولة الأمنية والإدارية فيها تعود للسلطة الفلسطينية، أما المنطقة (ب) فالمسئولة الادارية فيها للسلطة الفلسطينية، بينما المسئولة الامنية لإسرائيل.

- سيادة السفير .. أنا أشك فى أن الحكم الذاتى سيستمر مسقبلاً؟.

- قال محمد بسيونى: لا نستطيع أى حكومة أن تتراجع عما تم الاتفاق عليه، هناك التزامات دولية لا يمكن الفكك منها، لقد كان هناك كليتون ومبارك وحسين شهداء على ما تم الاتفاق عليه، المشكلة ليست فى ذلك الآن، المشكلة الحقيقية: ماذا لو فاز الليكود؟.

من ناحيتنا لاشأن لنا بالشئون الداخلية لإسرائيل. فليختر الشعب الإسرائيلى أى حكومة يريدھا، ولكن لو جاء الليكود ستتعدد الأمور فى المناطق الباقية وفى الجولان، وهذا ما كان يسعى اليه المخربون. كانوا يريدون تدمير المسيرة السلمية، ومعسكر السلام الحاكم فى إسرائيل، والسلطة الفلسطينية، وهذا ما حدث تماماً. وفى تقديرى أن هناك عناصر دولية تتدخل فى الموضوع لتمويل الانتحاريين.

تصورت للحظة أن بيريز موقفه أسوأ من موقف عرفات، لكن السفير بسيونى يرى أن كليهما فى نفس القارب، ففى رأى السفير أن بيريز هو الأب الروحى لاتفاق أوسلو.. الخطوة الأولى لتحقيق آمال الشعب الفلسطينى التى يحلم بها الرئيس عرفات.

ويقول السفير بسيونى: الإرهاب الذى عصف بقارب السلام ليس اسلامياً بدليل أن الارهابيين لم يفرقوا بين مسلم ومسيحى ويهودى، وأتمنى ألا تتوقف المسيرة السلمية لحين القضاء على الارهاب فالأفضل للسلام أن يسير على خط مواز لخط القضاء على الإرهاب.

■ لا سلام ولا كلام ■

إذن أصبحت العلمية السلمية مرهونة بالقضاء على حماس. ولكن بيد من ؟ هذا ما سألته للسفير بـسيوني فقال: السلطة الفلسطينية المنتخبة من الشعب الفلسطيني وليس أحدا غيرها. لقد انتخب عرفات ٩٣٪ من الشعب الفلسطيني. وحماس تريد أن تكون سلطة أخرى موازية تفرض سطوتها بالارهاب. انها مأساة لبنان تتكرر من جديد. لماذا تفرض الاقلية رأبها؟ لو كانت لديك القوة لماذا لم تخض الانتخابات؟ الأوراق تقول أن ٨٠٪ من الشعب الفلسطيني حضر إلى الانتخابات. فأين تكمن قوتك أنت يا حماس؟ إن الشعب الفلسطيني اختار السلطة الفلسطينية لأنه يريد أن يعيش ويبنى كيانه الاقتصادي، إسرائيل بدورها التزمت بما وقعت عليه وانسحبت من المدن. فماذا يريد أعضاء حركة حماس إلا إجهاض أحلام الشعب الفلسطيني؟ ١.

- سيادة السفير.. أسمع الآن دقائق طبول الحرب أكثر مما أسمع هديل حمام السلام، أتحدث إليك عن الشارع الإسرائيلي الذي تعرفه جيداً.

- صدقت فهناك انفعال وفورة غضب وهذا رد فعل طبيعي لأناس عددهم قليل ويتساقط منهم في كل عملية انتحارية ٢٠ قتيلاً ومائة جريح، طبيعي أن يكفروا بعد ذلك بالسلام، لكنه - في رأيي - كفر مؤقت سيختفى عندما يشعر المواطن الإسرائيلي أن السلام سيأتي له بما يريد وهو أمنه الشخصي، ودليلي على ذلك أنك لو كنت قد سألت قبل يوم واحد من توقيع اتفاقية اوسلو أى شخص في إسرائيل هل يمكن أن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، من المؤكد أن ٩٠٪ سيقولون لك لا، ولكن عندما رأوا الاتفاقية وأن المنظمة تعهدت بتحقيق الأمن وافقوا، إذن الأمن هو الفيصل. وأعتقد أن الانتحاريين أضروا بالشعب الفلسطيني بأكثر مما أضروا بالشعب الإسرائيلي.

■ لا سلام ولا كلام ■

هذا كان كل مالدی سفیرنا فی تل أبیب، ذلك الرجل الذی یحظى بحب وشهره بین الإسرائیلیین تدعو للدهشة، فالمسألة أكثر من أنه أول سفیر مصری فی إسرائیل، وأعمق من انه یعیش بینهم ویتکلم لغتهم لمدة ١٥ عاماً. المسألة فهمت بعضها حین علمت أنه فضل أن یدعو بعض الشخصیات الإسرائیلیة علی العشاء ولم یفکر - حتی - فی سؤالنا عن المكان الذی نقیم فیہ فی إسرائیل، حتی قائمة الأسماء بالشخصیات الإسرائیلیة التی طلبت مساعدته فی تدبیر لقاء لی معهم لم یلتفت الیها رغم أن أحدهم کان من بین المدعوین علی العشاء لده! كل ما فعله هو أن أشار علی بأن أكتب القائمة واسلمها للأخ - الذی نسیت اسمه - وهو سیتولی تدبیر المواعید.

ولحظتها عرفت أنني لن أحظى بأی میعاد.. ولن أجلس مع أی شخصیه إسرائیلیة. الموعد الوحید الذی رتبہ لنا الأخ - إياه - کان مع الجنرال «إبراشا تامیر» أحد أعضاء الوفد الإسرائیلی فی توقيع معاهدة السلام مع مصر، لكن لکی تکتمل «المنظومة» أخبرنا - صديقنا المصری - أن الموعد فی الفندق الساعة الخامسة. وأخبر الجنرال بأن الموعد فی الساعة الرابعة. وجاء الرجل فی موعدة وانتظرنا لمدة ٤٥ دقيقة ثم مضى غاضباً، وهذا ما جعل موظف الاستقبال الإسرائیلی فی الفندق یکاد یوبخنی وهو یقول کیف تجعل جنراً لبقیمة الجنرال تامیر ینتظرك هکذا ولا تحضر الیه؟.

لم أستطع أن أجیب علی موظف الاستقبال لانه کان لا یرید إلا توبیخنی لیس أكثر. وبطريقة ما حصلت علی رقم تلیفون الجنرال تامیر فی منزله ورد علی الرجل واعتذرت له بأننی كنت فی القدس ووصلت تل أبیب فی الموعد الذی حدده الزمیل الذی رتب اللقاء، فقال لی الجنرال: أنا أصدقك.. اتصالک بی دلیل علی

صدقك. وعرضت على الرجل أن نلتقى ونصحح الخطأ فعرفت منه أنه مدعو اليوم على العشاء فى أحد الفنادق وأن السفير محمد بسيونى هو صاحب الدعوة. ثم استطرد متسائلا: ألم يوجه اليك الدعوة؟.

وصمتت لحظة قطعها هو بقوله: على فكرة جريدة أخبار اليوم أهم صحيفة فى منطقة الشرق الأوسط وقد كانت من أوائل الصحف المصرية التى عبأت الرأى العام لديكم لعملية السلام التى قادها الرئيس الراحل العظيم أنور السادات ورئيس الوزراء الراحل مناحم بيجين وأتمنى حقيقة أن ألتقى بك وبقرءاء أخبار اليوم وليس هناك مشكلة لدى فى تحديد موعد آخر معك.

المشكلة لدى أنا يا جنرال، قلتها لنفسى بعد أن وضعت السماعة، وقررت أن أوجه كل اهتمامى إلى الضفة والقطاع والقدس وأى مكان بعيد عن السفارة المصرية، ولكن كان على أن أسأل فى السفارة كيف اخترق الطوق الأمنى الإسرائيلى؟ فقالوا لى: ليس هناك مشكلة.. جواز سفرك سيساعدك على المرور.

لكنهم كذبوا على.. وكان على دفع الثمن غالياً؟!.

الفصل السادس

الطريق إلى أريز

**نحن عرب ٨ ٤.. الذين وضعنا ألسنتنا
داخل أفواهنا، ومشينا جنب المحيط
لا نملك القدرة على الفعل، وإسرائيل
تعرف ذلك جيدا، وإلا لماذا منحتنا
جوازات سفر إسرائيلية؟**

من قال أن المدين جماد لا روح فيها؟.

من المؤكد أنه لم يزر تل أبيب، ولم يسمع عن بورسعيد، ولم يمر على الاسكندرية!.

نعم هذه المدينة التي تطل على البحر المتوسط ثقيلة الظل، ضيقة الصدر، ليس لها نصيب من حميمية بورسعيد وسحر الإسكندرية.

كنت أظن أن الأمطار هي التي حالت دون تعارفنا.. أنا وتل أبيب. وها هي الأمطار تتوقف، وها هي الشمس تبزغ، وتل أبيب.. هي تل أبيب، بينى وبينها «براح». تماماً مثلما بين سكانها وبعضهم البعض، تخالهم جزراً منعزلة كل منها مكتفية ذاتياً. كان ظنى أن هاجس الأمن سيجعلهم يلوذون ببعضهم، لكن ظنى تبخر وأنا أنظر حولى أتأمل تلك الوجوه العابسة التي لاتفر عن ابتسامة واحدة. انهم اليهود الذين جلست بينهم فى صالة المطعم بالفندق والموظفين الذى تعاملت معهم بنفس الفندق والمهرولون فى شوارع تل أبيب التي لا بد أن أتركها فى الحال. حسب خطة العمل التي أسير عليها، ووفقاً لمقتضى الحال فى مناطق الحكم الذاتى، كان على أن أكون فى غزة يوم الجمعة كى أمكث فيها ثلاثة أيام قبل أن أتوجه إلى القدس.

ولأن التنقل بالتاكسيات هو الوسيلة المتاحة؛ خطر ببالي أن اتصل بالسائق «موفق» الذى كان من المفروض أن يستقبلنا فى المطار وتعطلت سيارته، أريد أن أتحدث مع شخص من عرب إسرائيل قبل أن أتحدث مع الفلسطينيين فى غزة.

كنت احتفظ برقم تليفونه المحمول فطلبت، وعندما رد على أكد أنه سيكون أمام الفندق فى العاشرة والنصف، وقبل أن يصل موفق كنت قد انتهيت من ارسال أول رسالة صحفية من جهاز فاكس بالفندق إلى «أخبار اليوم».. وكانت تحمل عنوان

■ لا سلام ولا كلام ■

«شرم الشيخ.. طوق النجاة» لقد تم الاتفاق على عقد مؤتمر لمكافحة الارهاب أو لحماية السلام أو لصناع السلام. لايهم العنوان طالما أن الهدف كان «تطبيب خاطر» إسرائيل ليس أكثر. لكن مصر التي سينعقد المؤتمر على أرضها يوم الأربعاء صممت على حذف كلمة الإرهاب من اسم المؤتمر طالما أن الذين سيجتمعون هم صناع للسلام.

على كل حال لقد خمنت أن تل ابيب التي ستصاب بالشلل في إجازة السبت ستكون مشغولة اعتباراً من الاحد بهذا المؤتمر الذي ستجلس فيه إسرائيل على «كوشه العروس». وليس مهماً لى أن أعرف ماذا سيعدون، لهذا المؤتمر طالما أن كل شئ يؤكد أن إسرائيل لا تريد الآن سوى محو حماس من على وجه الأرض بعد أن نجحت - حسب ظنها - في تدجين السلطة الوطنية الفلسطينية.

كانت انباء القبض العشوائي على افراد حركة حماس فى كل مناطق الحكم الذاتى توحى لى - وربما لغيرى - أن الشرطة الفلسطينية تريد أن تثبت أنها بريئة من دماء الإسرائيليين حتى ولو أدى ذلك إلى القبض على ٨٠٠ فلسطينى بزعم انتمائهم لحماس.

فماذا تريد إسرائيل أكثر من ذلك؟. لقد تحولت الشرطة الفلسطينية - فجأة - إلى مخلب قط ينطبق عليه المثل: «بيدى لا بيدى عمرو».

ومن أجل ذلك يجب أن يكون مكانى هناك فى غزة.

هذا هو موفق يسأل عنى، شاب عشرينى ممتلئ قليلا، يميل إلى القصر، على الوجه ابتسامة مطبوعة ولد بها ولم تفارقه، يسير على الأرض وكأنه يقفز. وهيا بنا يا موفق إلى غزة.

اعتذر عما حدث يوم المطار، وقال انه صحح الخطأ اليوم وأتى بسيارة مرسيدس

■ لا سلام ولا كلام ■

من الصعب أن تتخذه. ثم سألتني: أليس غريباً أن تختارني - بعد ما حدث - لكى أوصلكما إلى غزة؟

فقلت له: أبداً.. أنت عربى ومصرح لك بالعمل هنا مع الإسرائيليين، فلماذا لا تستفيد من دولارات مصر بدلاً من أن تذهب، إلى سائق تاكسى إسرائيلى.

فرد على ضاحكا: ولكننى إسرائيلى بالفعل.. هكذا تقول الاوراق التى أحملها. وهكذا ستذهب دولاراتكم إلى إسرائيل.

أعجبتنى طلاقه لسانه وخفة دمه وأغرتنى بسؤاله: ألا ترى يا موفى أن الهدوء البادى فى شوارع تل أبيب هذه يتعارض مع الصورة المؤلمة التى يحرص الإعلام الإسرائيلى على تصويرها؟. لقد ظننت أننى سأرى الخوف والدموع فى عيون كل سكان تل أبيب، لكننى لا أرى شيئا من ذلك.

قبل أن يجيبنى أغلق النداء الداخلى للسيارة وكأنه يخشى أن يصل كلامه إلى مقر شركة التاكسيات التى يعمل بها ثم قال: معظم سكان تل أبيب هم أغنياء إسرائيل الذين ينتمون إلى أصول أوروبية، أصيبوا بالخوف والرعب والدموع بالفعل فى أعقاب حادث «ذيزنجوف» ولكنهم ليسوا مثلنا. إنهم لا يستغرقون فى الرعب والدموع طويلاً، بمجرد أن فرضت حكومتهم طوقاً أمنياً على مناطق الحكم الذاتى الفلسطينية أطمأنوا تماماً أنت بالطبع لا تعرف الطوق الأمنى إلا عندما تراه بعينك عندما نصل معبر أريز بعد نصف ساعة.

- حتى ولو كان كلامك صحيحاً - يا موفى - ألا يخشى الإسرائيليون أن نجىء لهم الضربة من عرب إسرائيل الذين يعيشون أحراراً بدون طوق أمنى.

ضحك موفى طويلاً على ملاحظتى فأحسست انها غيبة وفى غير مكانها، وحينما كف عن الضحك قال لى: يا أخ عاطف بغض النظر عن أن عرب إسرائيل

■ لا سلام ولا كلام ■

- الذين أنا منهم - يحملون جوازات سفر إسرائيلية فهم عرب بقلوبهم فقط. هل فهمتني؟ نحن عرب ٤٨ الذين وضعنا ألسنتنا داخل أفواهنا ومشينا جنب الحيط كما تقولون في مصر، لأنك القدرة على الفعل، وإسرائيل تعرف ذلك جيداً، وإلا لماذا منحتنا جوازات سفر، نحن نتمتع بكل حقوق المواطن الإسرائيلي عدا الخدمة في جيش الدفاع الإسرائيلي، الشرطة يمكن، لكن الجيش لا يسمحون به إلا للدروز والبدو.

قلت لموفق: ولكنني لاحظت أن إسرائيل تدق «اسفين» بين عرب إسرائيل وعرب المناطق ووصفتكم بأنكم شركاء في الوطن.. هل هذا حب أم ماذا؟.

وغنى موفق وهو يطبل على «الدركسيون»: حب ايه اللي انت جاي تقول عليه، ثم اضاف: إذا تحدثت عن السياسة والأمر الواقع فلا تزج بالحب والكراهية في الموضوع. المسألة أن هناك انتخابات يوم ٢٩ مايو القادم، وعرب إسرائيل يمثلون ١٠٠ ألف صوت قد تطيح بحكومة بيريز وحزب العمل وقد تبقى عليه، وطبعاً الوزراء الذين يشيدون بنا، هم في الواقع يشيدون بالحقية الوزارية التي يقبضون عليها بكل قوة.

وتقترب السيارة من معبر أريز، الذي يفصل بين إسرائيل وغزة. كنت أعتقد أن موفق سيدخل بنا غزة لكنه توقف أمام كشك حراسة إسرائيلي يحتله جنديان إسرائيليان وقال: ستمشون مسافة نصف كيلو حتى يظهر العلم الفلسطيني وجنود الشرطة الفلسطينية، وهناك من السهل أن تجد سيارات تاكسي، أنت تعرف تليفوني حين تود العودة إلى تل أبيب اتصل بي من غزة وستجدني في انتظارك هنا في أريز.

وتركنا موفق لجنديين إسرائيليين لا يتعدى عمر كل منهما العشرين، يضعان

حزام الرشاش الإسرائيلي الشهير «عوزى» على كتفهما بحيث يكون الرشاش فى وضع استعداد، ويضعان سبابتهم على الزناد تحسباً لأى طارئٍ فينتهى الامر فى أقل من الثانية، قلت لهما وأنا أقترّب منهما: «شالوم» فرد على الجندى الاشقر باللغة الانجليزية: أين الهوية؟ أبرزت جواز سفرى وكذلك فعل إبراهيم مسلم. أطمأنا أكثر وسألنى الجندى الآخر: «مصرايم» فقلت له: نعم مصربون وهذه بطاقة الصحافة الدولية. وقبل أن يسمح لنا بعبور الحاجز القى نظرة فاحصة على محتويات حقبتى وحقية شريك رحلتى ثم مضينا، قلت لزميلى ونحن نتأهب لقطع المسافة التى قال عنها موفق أنها نصف كيلو: الأمور فى غاية السهولة هنا وبعيدة عن التعقيد، هل هذين الجنديين فقط هما الطوق الأمنى الرهيب الذى حدثنا عنه السائق؟!

حين انعطفنا يساراً بعد أن سرنا لمدة خمس دقائق وجدنا أنفسنا داخل كتيبة عسكرية إسرائيلية كلها فى وضع الاستعداد، إذن الحاجز الأول كان مجرد «تصبيرة» للحاجز الحقيقى. على البعد لمحت علم فلسطين ولكن المسافة بيننا وبينه مازالت بعيدة، قلت لإبراهيم: سنمضى فى طريقنا فإذا استوقفنا أحدهم فلن يفعل أكثر مما فعله زميلاه الذين تحدثا - بالتأكيد - من التليفون وأكدوا أن أوراقنا كاملة. ومضينا بالفعل حتى إذا ما وصلنا لآخر جندى إسرائيلى على آخر بوابة سألنا هو الآخر عن الهوية، وعندما علم أننا فى مهمة صحفية أمرنا بالعودة إلى أول جندى يجلس فى أول مكتب بالكتيبة، وبالطبع لم نكن نستطيع إلا إطاعة الأوامر. كان الجندى الذى ذهبنا إليه يرتدى نظارة طبية ويحمل ملامح عربية، ويتكلم أيضاً بالعربية. قال لى بعد أن تفحص جواز السفر والبطاقة الدولية: نحن فعلاً نسمح بمرور الصحفيين والسياح فقط، ولكن لماذا لم تستخرج لكما سفارتكما تصريحاً من مكتب الصحافة الحكومى الإسرائيلى؟ فقلت له: لقد أخبرونا أن جواز السفر

وحده يكفى. فرد الجندى بمنتهى الأدب: ربما لا يعلمون أن كل عشر دقائق تصلنا تعليمات جديدة، لدرجة أنني اذهب للغداء وأعود فأجد تعليمات مختلفة عن التي كنت اطبقها قبل الغداء! على العموم ستضطران للعودة إلى القدس لاستخراج التصريحين فهل تعرفان المكان فى القدس؟.

قلت له: بالطبع لانعرف. فنادى على صحفيين أوريين وطلب منهما التصريحين واعطاهما لى قائلاً: هذين هما التصريحين الذين يجب أن تحملهما طوال فترة وجودكما فى إسرائيل. ثم وجه حديثه إلى الصحفيين يسألهم عن مكان مكتب التصريحات. وعندما تأكد أننا فهمنا أنه فى ٣٧ شارع هليل قال: أخشى عند عودتكما أن تجدوا تعليمات جديدة.. ثم ضحك وانصرف إلى عمله.

ولكننى إستوقفته وطلبت منه أن يساعدنى فى البحث عن تليفون كى أتكلم مع السائق الذى أتى بنا ليقودنا إلى القدس، فأشار إلى تليفون على مكتبه قائلاً: «نو بروليم».

كان موفق مازال فى الطريق إلى تل أبيب عندما سمع منى ماحدث، فقال عندما تصلون إلى المكان الذى تركتكما فيه ستنتظران لمدة عشر دقائق قبل أن ترونى أمامكما. شكرا يا موفق.

واعطينا ظهرنا للعلم الفلسطينى البعيد، وعدنا مرة أخرى نحمل خيبة الامل، وعندما رأنا أول جنديين سألانا: لماذا عدتما؟ فقصصت الحكاية من أولها، فأبديا دهشتها وقالا: القدس ليست بعيدة.. المسافات هنا بين المدن لاتتجاوز الساعة أبداً.. هل تحدثتما مع السائق ليعود إليكما؟.

وبعد الاجابة قال لى الجندى الاشقر: انتظرا بعيداً عن الكشك.. هناك فى «البارك».

كانت ساحة الانتظار مقفّرة، فلا أحد يدخل ولا أحد يخرج، لم يكن هناك سوى سيارة تاكسى يبدو أنها تنتظر صحفياً أو سائحاً سيأتى من غزة.

ومن بعيد لمحنا سيارة موفق، فالحاجز مصمم بحيث يشرف على طريق متعرج تظهر السيارات فيه من بعيد بحيث يرى الجنديان أى شخص قادم على بعد نصف كيلو متر على الأقل، وهكذا رأينا سيارة موفق المرسيدس وقد أضاء كشفها الأمامى، وعندما وصل سألته لماذا تضىء الكشف ونحن فى عز الظهر؟. وقبل أن يجيب تنبّهت إلى أن كل السيارات التى قابلناها ونحن قادمين من تل أبيب تفعل الشئ نفسه. قال لى موفق: هناك تعليمات من المرور بأن تضاء الكشف طوال شهور الشتاء نهائياً وليلاً لأن الضباب فى النهار يتسبب فى حوادث كثيرة، هل لديك أسئلة أخرى؟ قالها وضحك وهو يفتح لنا حقيبة السيارة الخلفية لنضع فيها حقيبتينا.

المسافة بين أريز والقدس ضعف المسافة بين تل أبيب وأريز، معلومة قالها لنا موفق بصورة فهمنا منها أن الأجر سيكون مضروباً فى أربعة لأنه سيصبحنا إلى القدس وسيعود بنا إلى أريز مرة أخرى.

قلت له: لن نختلف على «المصارى» وتأكد أننا ندفع لك عن طيب خاطر، وأنا شخصياً أحببتك، وأظن الحاج إبراهيم يشاركنى هذا الشعور، فرد الحاج إبراهيم: أى شخص لا بد أن يحب موفق.

أوقف موفق السيارة بفرملة قوية مفاجئة قال بعدها: مشاعر المصريين جميلة جداً كلها صدق، ربما لانتمتع نحن بهذه المشاعر نتيجة لما عايناه، وربما لانستطيع أن نعبر عن مشاعرنا مثلكم، ولكن الشئ الأكيد أن مصر معنى كبيراً بداخلنا لانستطيع وصفه بأى كلام، ورغم التعب الذى حل بكما فى أريز فأنا سعيد أننى

عدت لنذهب سويا إلى القدس.

هل من حسن حظنا أن عثرنا على هذا السائق الذى يسكن فى قرية فلسطينية أصبح اسمها إسرائيلياً تماماً مثل هويته؟. ظلمته حين اتهمته بينى وبين نفسى انه ينظر بحياد تام إلى الفلسطينيين المحاصرين، وعندما قال لى ونحن فى طريقنا إلى القدس أن الذى يستحق الحب ليس هو ولكن المحاصرين فى مناطق الحكم الذاتى أدركت ساعتها أن أبشع من السجن والإعدام أن تبقى مشاعرك سجينة صدرك، وأن تبقى كلمتك أسيرة لسانك.

هو لا يعتمد أن يكون كلامه معى بالقطارة، انما هو قد جُبل على ذلك. يتحدث طوال اليوم بالعبرية، وحين يعود إلى قريته وإخوته العشرة ليلاً يستعيد عباءته العربية، يفرش سجادة الصلاة ليصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء مرة واحدة، إنه واحد من عرب ٤٨ الذين رفضوا أن يحملوا لقب «لاجئ» فبقى على نفس الأرض التى شهدت ميلاد أجداده حتى ولو كان الثمن جواز سفر أزرق محفور عليه شمعدان اليهودا.

أين فلسطين الحقيقية التى أحببتها فى مدرستى وتغنيت باسمها؟

هذه لوحة على الطريق تُشير إلى عسقلان.. لكنهم أرادوها عبرية فكتبوا أشكيلون، وهذه لوحة أخرى تشير إلى بيت لحم ورام الله ونابلس، وهذا هو الطريق إلى حيفا وطولكرم وقلقيلية وجنين. من منا لم يحفظ هذه الاسماء اكثر مما حفظ اسم زميله على مقعد المدرسة. من منا لم يبك وأستاذ اللغة العربية يفسر لنا المعنى الذى قصده الشاعر فى قوله «مؤامرة الأعدى والصحاب».

هأنذا يا فلسطين أجىء اليك، ولكن بتأشيريه إسرائيلية، وها هم يمنعوننى من دخول غزة لأننى لم أمر على مكتب الصحافة الإسرائيلى، إنهم يضعون الأسوار

■ لا سلام ولا كلام ■

حول حلمى وحلمك. ويحولون بينى وبين احتضانك خفية دون أن يرانا شاب يحمل رشاش عوزى، وها هى جبال القدس ووديانها تطل علينا من بعيد، كم أتمنى أن أقفز من هذه السيارة وألقى بنفسى فى حوضن هذا الوادى، أثق أننى لن أصاب بسوء. فمازلت يامدينتى مدينة الزيتون، من ينزف فيك لا تحف دماؤه، سيستجيب الله إلى دعائك ويث فى شرايينى الحياة من جديد.

يحاولون تهويدك وكل عصفور فيك يغرد بالعربية. يشيدون مبانى على الطرز الأوربية.. لكن الكلمة العليا تبقى لحجارتك العربية، يزعمون انك عاصمتهم لكنهم لا يدركون انك تلفظين قتلة الأنبياء ولو طال مقامهم، شيدوا مستوطناتهم فوق جبالك.. فقولى لتلك الجبال أن تتمخض وتبتلعهم، لماذا يشوهون جمال شوارعك بهؤلاء الذين يرتدون السواد ويطلقون لحاهم المنفرة ويضعون قبعات غريبة فوق رؤوسهم؟.

هذه هى زهرة المدائن، قالها موفق قبل أن يضيف: ولكن هذه هى القدس الغربية التى يعيش فيها اليهود، فى القدس العربية لن يكون هناك هذا العدد من الحاخامات والمستوطنين.

كان هناك شاب إسرائيلى يجلس وحيداً فى مكتب الصحافة الحكومى، عندما علم بطلبنا قال: مواعيد العمل انتهت.. تعالوا يوم الأحد. قلت له؟ انت تحكم علينا - هكذا - بالشلل لمدة يومين.. الجمعة والسبت؛ فهل هناك مشكلة لو انك منحتنا استثنائين؟.

قال لنا: أو.. هل انتم مصريون؟ حسنا.. ليس هناك مشكلة.

وفى خمس دقائق كنا قد حصلنا على التصريحين وهرعنا إلى حيث ينتظر موفق.. هيا بنا إلى أريز، ولكن لندع الله ألا تكون هناك تعليمات أمنية جديدة.

ومن نفس الطريق عدنا إلى أريز وكان فى انتظارنا نفس الجنديين.. ونفس الجندى «أبو نضارة». وأخيراً أعطينا ظهرنا لعلم إسرائيل واستقبلنا علم فلسطين الحبيب بألوانه الأربعة التى تحكى قصة شعب حكمت عليه المقادير أن يسدد كل فواتير الألم بالنيابة عن العرب جميعاً!.

كلما اقتربنا كبر العلم.. ورأينا جنود السلطة الوطنية الفلسطينية يقفون أسفله يحملون رشاشات كلاشينكوف روسية، لكنها ليست فى وضع الاستعداد للضرب مثل «العوزى».

حين أصبحت فى مواجهة أول جندى فلسطينى كانت الدموع قد أغرقت وجهى وبللت نظارتى، فظن الجندى - المسكين - أن اليهود تعرضوا لى بالإيذاء، لم يدرك معنى أن يرى عاشق مثلى علم فلسطين يرفرف فوق أرض فلسطينية، لم يعرف أن بعضاً من الأحلام التى رضعتها فى بورسعيد قد تحققت أمامى الآن.

الفصل السابع

فندق الأمل

** لقد ساعدت إسرائيل حركة «حماس»
أثناء الانتفاضة حتى تقوض منظمة التحرير
الفلسطينية. وبعد أن توقفت الانتفاضة
انقلب السحر على الساحر وأصبحت «حماس»
- وليس المنظمة - هي التي تسرق النوم من
عيون الإسرائيليين! **

هل يرزقنا الله بسائق - مثل موفق - يكون مفتاحنا فى باب غزة؟
ولكننا لانحتاج هنا إلى مفتاح فالأبواب مفتوحة للأحباء والحالمين و..
المحاصرين.

بمجرد أن سلمنا على الجنديين الفلسطينيين تقدم منا شاب فلسطينى فى مثل
عمر موفق يسألنا إذا كنا نريد تاكسى، حاول أن يحمل عنا الحقيبتين فرفضنا،
وسأله عن اسمه فقال: ماجد. كانت سيارته ملاكى وليست تاكسى، وعندما
لاحظ تردنا قال بلهجة مصرية: «الرزق يحب الخفية».

بمجرد أن جلست إلى جواره قال: بعد أن فرضت إسرائيل الطوق الأمنى بقى
هنا فى غزة اكثر من ٣٠ ألف شاب بلا عمل، هؤلاء كانوا يخرجون يومياً إلى
إسرائيل يعملون فى البناء أو الزراعة أو الحرف الأخرى ويعودون فى الليل. لكن
إسرائيل أخذت الكل بجزيرة «حماس» وفرضت عقاباً جماعياً علينا، يظنون أننا
سننكسر ولكن هيهات، يبدو أنهم نسوا صمودنا أثناء الحصار الكبير فى حرب
الخليج، لقد حددوا إقامتنا فى غزة وفرضوا حظر التجوال طوال اليوم إلا على
النساء لكى يذهبن إلى السوق، ومع ذلك لم نمت من العطش ولم نتضور من
الجوع ولم نلهج بالشكوى، فقط بالدعاء إلى الله لكى يخلصنا من بنى إسرائيل.
- وما علاقه ما قلته يا ماجد بحكاية «الرزق يحب الخفية»؟.

- الحكاية واضحة.. كل شاب عنده سياره ملاكى حولها إلى تاكسى حتى
لا ينقطع رزق بيته، فالرزق يأتى من السماء وليس من إسرائيل، وعلى فكرة أنا لم
أسألكم حتى الآن عن المكان الذى تريدون الذهاب إليه.

قلت له: بصراحة غزة هى المكان، التفاصيل لاتهم. أى مكان نضع فيه حقيبتنا

سيفى بالغرض، فنحن نقصد الشارع الفلسطيني الذى يبحث عن الأمل، الأمل فى السلام الحقيقى الذى يعيد إليه حقه غير منقوص، الأمل فى ان يكون هناك دولة حقيقية يدخل اليها المرء دون حصوله على تأشيرة من بنى إسرائيل، الأمل فى أن يتحول عذاب ٤٨ سنة إلى ضحكة عالية مجلجلة يطلقها طفل فلسطينى فى غزة فيسمعها شقيقه فى العراق وشقيقه الآخر فى المغرب.

نظر إلى ماجد طويلاً ولم يرد، وبقي الصمت جاثماً فى السيارة حتى قاطع الحاج إبراهيم صمته بملاحظة عن سكون الشوارع واغلاق المحلات التجارية واختفاء الاطفال الذين يلعبون فى الشوارع ساعة العصارى.

فيرد ماجد على الملاحظة ويقول: هل نسيتم أن اليوم هو الجمعة؟ فى هذا اليوم يجلس الجميع فى بيته وإذا رأيت أحداً يمر فى الشارع فلا بد أنه متوجه لزيارة أقربائه، فكلنا - تقريباً - أقرباء حقيقيون وليس بالمعنى المتداول على طريقة «الأشقاء العرب».

- يبدو لى يا ماجد انك حانق على الاشقاء العرب.

يضحك الشاب الفلسطينى وهو يقول: سألف بكم فى شوارع غزة حتى تعرفان ماذا قدم لنا الأشقاء لكى نبني البنية الأساسية فى المكان الذى نعيش فيه، أنظر إلى الشوارع المليئة بالحفر.. انظر إلى المجارى التى تملأ كل مكان وتزكم برائحتها الأنوف. أعتقد أنكم كنتم فى تل أبيب ورأيتم النظافة والنظام والبنية الأساسية. اليهود كانوا يحتلون هذه المدينة وحرصوا على أن يخربوها لأنهم يعلمون فى قرارة انفسهم أنهم سيخرجون منها يوماً ما، هل يمكن أن تصدق أن هذا الوطن الصغير هو عاصمة الدولة الفلسطينية، يقولون أن هناك دول مانحة، فإين هى هذه الدول؟ نحن نريد نتائج نراها بأنفسنا، غزة فى حاجة إلى كل ما تحتاجه أى مدينة

■ لا سلام ولا كلام ■

من مدارس ومستشفيات وجامعة و.. و.. وشكراً للأشقاء العرب.

ويعتذر ماجد عن لهجته الحادة ثم يقول لى: طالما تحدثت عن الأمل مارأيك فى أن تنزل بفندق الأمل. سيعجبك جداً.. ولكن إعجابك سيتراجع إذا عرفت أنه كان فى الأصل معهداً دينياً وتم تحويله لفندق من باب «الرزق يحب الخفية» أظنك فهمتني تماماً، هناك فى الفندق ستجد مجموعة من الشباب الفلسطينى، منهم من جاء من مصر عقب إعلان الحكم الذاتى وأغلبهم من شباب الانتفاضة، أراهن أنك ستسمع منهم كلاماً سيجعلك تقترح تغيير اسم الفندق من الأمل إلى أى شئ آخر لايعرف خيوط الضوء الأبيض.

الشباب الفلسطينى لا يبادر أبداً بكسب ود الغريب، حتى ولو كان هذا الغريب مصرياً. كنت أعرف ذلك قبل أن أكتب إسمى فى دفتر الاستقبال بفندق الأمل.

الشاب الذى يقف خلف منصة الاستقبال ملامحه «عرايشيه بدوية». وجهه منحوت بحيث يصعب عليه الابتسامة رغم انه كان لحظة دخولنا يتابع فيلماً لاسماعيل ياسين، ولكن يبدو أن «مفعولك يابو السباع لايجدى هنا»!

صممت على أن أفرض نفسى عليهم بأى شكل. هؤلاء هم الذين اتيت اليهم وليس السادة الذين يرتدون البدل ويركبون المرسيدس ويعملون فى السلطة الوطنية الفلسطينية.

جلست فى الكافتيريا وطلبت شاياً وشيشة، كان يجلس غير بعيد منى شاب سمين يتحدث بلهجه مصرية ويبدو على ملامح وجهه أنه يحمل القضية الفلسطينية وحده على كتفيه، عزمت عليه بالشيشة فرد على بقوله: واجب علينا.. انتم ضيوف.

■ لا سلام ولا كلام ■

كمن هياً لى الكرة لكى أسدد فى المرمى رددت عليه: ولكنكم حتى لاتقولون لضيوفكم أهلاً وسهلاً!

قام من مكانه واقترب منى وهو يسحب كرسى «بامبو» ثم قال: اعذرنى يا أخى.. الظروف مش ولا بد ولانعرف إلى أين ينتهى الطريق.

- سألته.. ما اسم الكريم؟.

- ابراهيم.. ابراهيم ابو راغب وأنا تقريباً مصرى مثلك!

- كيف؟.

- أنا ولدت فى مصر وتعلمت فى مدارس وجامعات مصر، ولأن بلدكم تسمح لنا بممارسة العمل الحر افتتحت بوتيكاً فى شارع قصر النيل. كان يدر على الآلاف وأصبحت من الموسرين بحمد الله، وعندما تم توقيع اتفاقية الحكم الذاتى ورفع علم فلسطين فوق غزة والضفة قلت لأبى هيا بنا إلى الوطن، ووافقت رغبتى رغبة أبى وأمى، مثلما وافقت رغبة زوجتى وشقيقتى وأشقائى، وبطبيعة الحال بعت البوتيك والشقة التى كنت أمتلكها فى مدينة نصر وجئت إلى هنا. لم أجد أى مشروع أضع فيه أموالى سوى فى هذا الفندق فأصبحت شريكا فيه حتى اكتشفت أننى شربت أكبر مقلب فى حياتى، لقد صدقت - مثل الكثيرين - أن إسرائيل ردت إلينا أرضنا لانها تريد السلام، واتضح لنا هنا أن إسرائيل لاتريد «لا سلام ولا كلام». ماحدث أن الانتفاضة كانت تسبب لهم «وجع راس» وتنهك اقتصادهم، ولأنهم - كما ترى - ليس لديهم أى استثمارات هنا قالوا لماذا لانسجنهم فى هذه الأرض الخربة ونسلم مفتاح السجن للسلطة الوطنية الفلسطينية، ولابأس من أن يرفعوا علمهم طالما أنهم سيكفوا عن رمينا بالحجارة وطالما أننا سنستفيد عالمياً من هذه الخطوة وينظر إلينا العالم كدعاة سلام، وهكذا سلمت لنا إسرائيل غزة ولم

■ لا سلام ولا كلام ■

تنس أن تترك فيها ١٤ مسماراً لجحاً.. أو بمعنى أدق ١٤ مستوطنة لا بد أنك رأيتها وانت في الطريق إلى غزة، ونفس الشيء فعلته في المدن السبع بالضفة الغربية. ويصمت ابراهيم فجأة كأنه تنبه إلى التورط في الحديث معي بهذا الشكل. فأكملت له الجملة التي خمنت أنه سيكمل بها الحديث وقلت: وعند أول اختبار حقيقى ظهرت النوايا الإسرائيلية الحقيقية.

فصاح ابراهيم: الله ينور عليك، واضح أن الحكاية «اتفقت» ولكن أبوعمار والسلطة الفلسطينية لهم رأى آخر، بدليل حملات الاعتقالات القمعية التي تقوم بها الشرطة الفلسطينية وكأنها تثلقى أوامرها من موسى شاحال وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي، وأرجو أن تصدقنى أن ما يحدث من الشرطة الفلسطينية يحقق الهدف الذى سعت اليه إسرائيل من حكاية الحكم الذاتى «بيدى لا بيد عمرو».

ويكمل ابراهيم بعد أن نضحت أمارات الپأس على وجهه: حاولت أن أعود إلى مصر فمنعوني ومعى المئات على الحدود، مصر لم تعد تريدنا، حاولت مراراً ولكننى فشلت. ذهبت إلى السفير محمود كريم سفير مصر فى غزة أرجوه أن يمنحنى تأشيرته فرفض، فأدركت ساعتها أننى وكل الذين يعيشون هنا فى سجن كبير، حتى السجن يحصل فيه السجناء على غذائهم بانتظام أما هنا فتوجد أزمة فى الخبز وفى السكر وفى الزيت وفى الارز، إنك لاتعلم معنى الطوق الأمنى، فناهيك عن مخزون الغذاء الذى ينفذ، إسرائيل ترفض مرور المرضى الذين يعالجون بانتظام فى مستشفيات داخل إسرائيل مثل مرضى الفشل الكلوى والسرطان. وهؤلاء لو لم يتلقوا علاجهم فى الميعاد المحدد يموتون، وهذا ما حدث مع ١٨ مريضاً حتى الآن اضيفوا إلى قائمة شهداء فلسطين. والآن هل قبلت

■ لا سلام ولا كلام ■

اعتذارنا لأننا لم نرحب بك على الوجه اللائق؟.

- لقد نزعت قلبي يا ابراهيم من صدرى، وألقيت به فى الناحية الأخرى من أريز، إنك حتى لم تدع مكاناً لطاقة أمل.

فقال ابراهيم: ليس لنا من الأمل إلا اسمه المعلق خارج هذا الفندق، وكلما نظرت إلى الاسم ضحكت لأننى أنا الذى اخترته!.

حين هلت نسيمات المساء من البحر المتوسط حاملة معها رائحة اليود ومذاق الاسماك ساءلت نفسى: أتراهم يستقبلون هذا العبير مثلى، أم أن معاناتهم جعلت حواسهم الشميّه لا تلتقط إلا رائحة الخطر الذى يعصف بهم من كل صوب؟.

قلت لنفسى سأذهب إلى العميد غازى الجبالى قائد الشرطة الفلسطينية. الذى حصلت على رقم تليفونه وأنا فى القاهرة، ومن تليفون الاستقبال بالفندق تحدثت مع الرجل واتفق معى على اللقاء بعد نصف ساعة بمكتبه وقال أن أى شخص بالفندق يمكن أن يدلنى على المكان.

سألت سالم موظف الاستقبال عمن يمكنه مصاحبتى إلى مكتب العميد الجبالى فرد شاب كان يقف على مقربه منا: أنا أقوم بالمهمة.. هيا بنا.

انه شاب آخر عبوس الوجه، ولكنه لم يصل بعد إلى سن العشرين.

قلت له أريد أن اصل إلى هناك سيراً على الأقدام حتى أرى غزوة فى المساء بتمعن، كما أن الموعد بعد نصف ساعة، فهل يضايقك ذلك؟.

فقال الشاب «محمد»: على العكس.. فأنا من هواة المشى.. كما أن المسافة لانتحاج إلى مواصلة.

لم أكن أعرف أن الظروف ساقطت لى كنزاً بمحض الصدقة، نعم هذا الشاب

■ لا سلام ولا كلام ■

- الذى يسير إلى جوارى نجح فى أن يجعلنى أخجل من نفسى .
- بادرنى محمد بالكلام: هل تسمح لى بأن ادخل معك إلى مكتب العميد غازى؟ هذا هو شرطى لتوصيلك إلى هناك.
- فقلت له: لو سمح لك موظفو مكتبه بالدخول فليس عندى مانع.
- فقال: سيسمحون لو أننى عبرت معك البوابة الرئيسية.
- قلت له: ولماذا تريد مقابلة العميد غازى بهذه الطريقة المحرجة لى وربما له أيضاً؟
- فقال: أريد أن أسأله لماذا قبض على المهندس الزهار - وهو ليس من كتائب عز الدين القسام التى تقوم بالعمليات الانتحارية؟
- وهل الزهار قريب لك؟
- بغض النظر.. الزهار برئ تماماً وينتمى إلى حماس بقلبه فقط.
- وكيف تعرف ذلك؟ ألا يجوز أنه يخطط لينفذ غيره؟
- لا أظن.. فالرجل الذى يرسل أبنائه لكى يتعلموا فى امريكا لا يخطط لمثل ذلك، ربما يكون له دور فى تبصير الشباب بما يجرى حولهم ويثير فيهم الحمية الوطنية لكنه لا يمكن أن ينصحهم بوضع حزام متفجرات حول خصورهم ليموتوا بهذه الطريقة.
- أنت - إذن - ضد حماس وضد العمليات الانتحارية.. اليس كذلك؟
- ليس بالمعنى الذى وصلك، فأنا واحد من الذين أفرجت عنهم إسرائيل مؤخراً من معتقل النقب الرهيب كجزء من اتفاقية الحكم الذاتى.

- أنت إذن من شباب الانتفاضة الأبطال.

- كنت منهم حتى قبضت على سلطات الاحتلال لأمكث في سجونهم ٢٤ شهراً. أنا الآن شاب عاطل بلا عمل، وكلمه بطل هذه لاتنطبق على أبداً.

- لانهون من شأن نفسك، فالانتفاضة التي قمتم بها هي التي جعلت إسرائيل تنسحب من غزة ليرفرف علم فلسطين فوقها.

- لاتصدق ذلك، فما زالت إسرائيل تحتلنا، طالما أنني لا أستطيع أن أعمل في بلدي أو أن أسافر إلى أى مكان فأنا سجين، وإذا أردت أن أجلس مع شباب الانتفاضة أو شباب منظمة صقور فتحت في معسكر الشاطئ تعال وأنت تسمع بنفسك لتعرف أن الحكم الذاتي لعبة ضحكك بها إسرائيل على الخيار - يقصد أبو عمار - والطوق الأمنى المفروض علينا يؤكد أن ثمن وقف الانتفاضة كان بخساً، إن الحرية المنقوصة لاتختلف كثيراً عن السجن.

- أخشى أن أقول - يا محمد - انك ضد السلام؟.

- لماذا تقول ذلك؟ أنا شاب وأريد أن أبني أسرته، وقبلها أريد أن أعمل عملاً شريفاً، وأعيش في وطن حر تتوافر فيه كل وسائل الحياة الأساسية لا الترفهية، وأريد أن أطوف العالم كسائح وليس كلاجئ، وأريد أن ينشأ أولادى فى جو صحى ليس فيه خوف أو جوع أو معتقل، كل هذا لن يتحقق إلا بالسلام الحقيقى. السؤال هو: هل تقبل إسرائيل أن تمنحنا هذا السلام؟ الإجابة التي يعرفها الجميع - خاصة الذين يعرفون إسرائيل - هي أن هذا السلام مثل الغول والعنقاء والخل الوفى، مستحيل يعنى.

- لو سألتك منذ عام عما إذا كان يمكن لإسرائيل أن تعترف بمنظمة التحرير

■ لا سلام ولا كلام ■

الفلسطينية لقلت مستحيل أيضاً.

- لا.. هذا قياس خاطئ، إسرائيل هي التي سعت إلى المنظمة وليس العكس، سعت اليها مضطرة لأنها فضلت الخيار السياسى الوحيد لقمع الانتفاضة بعد فشل رصاصهم المطاطى فى قمعها، إسرائيل مازالت تعتبر المنظمة عدوا لها، ولكنها تعلم أن عرفات أفضل كثيراً من زعماء المنظمات الأخرى، وقبل ذلك هي تعلم أن الشعب الفلسطينى يعتبر المنظمة هي الممثل الشرعى والوحيد له، أضف إلى ذلك أن الرئيس عرفات رجل يتمتع بقبول فى العالم أجمع باختصار؛ إسرائيل قبلت بالامر الواقع ولكن على مضض. ومع ذلك لم تسدد فاتورة تُذكر مقابل ذلك، لقد وضعونا فى «جيتو» كالذى كانوا يعيشون فيه فى الشتات، نتحرك بحرية فى الحارة ولكن لانستطيع أن نلعب فى الشارع.

- ولكن يا محمد هناك أجزاء أخرى من الاتفاقية لم تتم.. كما أن موضوع القدس لم يحسم بعد.

هل تقصد إعادة الانتشار فى الخليل؟ بعد ما حدث مؤخراً لن يعيدوا الانتشار سواء ظل بيريز فى الحكم أو جاء ثانياهو، وحتى لو حدث وأعادوا الانتشار فلن يختلف الأمر كثيراً. بمجرد أن يعبر أحدها عن غضبه سيعود الطوق الأمنى وتعلق لافتة على السجن تقول ممنوع الزيارة! أما مسألة القدس التى لم تحسم فهي مرتبط القدس، هل تعلم ماذا تريد حركة حماس؟.

- نعم دولة مستقلة عاصمتها القدس.

- وهل تتصور أن إسرائيل ستقبل بذلك الآن أو مستقبلاً؟ صدقنى ليس أمامنا سوى حل واحد

- ما هو؟

- عودة الانتفاضة!

نحن الآن أمام البوابة الرئيسية لمقر الشرطة الفلسطينية فى غزة. وجدنا أنفسنا عقب الإجراءات الأمنية العادية فى مكتب العميد غازى الجبالى الذى لم يبرح مكتبه منذ أن بدأت عمليات حماس، كان الرجل غارقاً بين قراءة التقارير التى تصله كل ٥ دقائق واعطاء تعليماته الفورية ثم تقديم تقرير كل ساعة للرئيس عرفات، وفى الوقت نفسه متابعة ما يجرى فى الراديو والتليفزيون.. ومع ذلك سمح لنا باللقاء.

حين رأيته على هذه الصورة قلت له: اعذرني يا سيادة العميد.. لن أسامح نفسى إذا أخذتك من هذا كله، لكن الرجل يرد: طالما انك تسعى لمعرفة ما يجرى فيسعدني أن أضعك فى الصورة، ومن الافضل أن تعرف الاخبار من هنا لأن الشائعات كاد صوتها يعلو - فى الخارج - على الأخبار الحقيقية.

- قلت له: يقولون فى الشارع أنكم تحولتم إلى مخلب قط تنفذون ما تريده السلطة الإسرائيلية وليس السلطة الفلسطينية.. هل هذا من قبيل الشائعات؟

- فقال قائد الشرطة الفلسطينية: بل هو من قبيل الافتراءات والأكاذيب، فنحن لا نتلقى أوامرنا إلا من سلطة واحدة وهى السلطة الفلسطينية، ولاننتظر تقييماً لأدائنا إلا من الرئيس عرفات فقط، أنا أعرف أننى أقوم بواجباتى مع ورجالى على أكمل وجه، ونحن رجال شرطة لاندخل فى لعبة السياسة أو المزايدات.

- قلت له: لكنكم حريصون على أن تجتدوا فى البحث عن القائمة التى تطلبها إسرائيل - التى تضم ١٣ إسماً - مما جعلكم تقبضون على الناس قبضاً عشوائياً.

■ لا سلام ولا كلام ■

- فقال: نعم قبضنا على ٧ من حركة حماس وباقي ٦ من القائمة.. نبحت عنهم ليس إرضاء لإسرائيل، ولكن هؤلاء يعملون ضد السلطة الفلسطينية، لقد كان الشعب يتعاطف معهم حينما كانوا يقاومون الاحتلال. الأمور تغيرت الآن وأصبح هناك سلطة فلسطينية بدون محتل، الشعب الآن بعد أوصلو يسير في سلام، الجهاد ضد المحتل مشروع منذ أيام الثورة الفرنسية ولكن أين المحتل الآن؟ هناك سلطة فلسطينية تسعى للسلام وهناك شعب فلسطيني يسعى للسلام، وهذا ما يجب أن نعرفه حكومة إسرائيل التي لجأت لأسلوب العقاب الجماعي على اعتبار أن كل شعب فلسطين هو حركة حماس وهذا غير صحيح.

- سيادة العميد: لقد قبضتم مؤخراً على محمود الزهار في إشارة واضحة إلى أنكم ستصفون حماس نهائياً حتى هؤلاء الذين لا ينتمون منهم للجنح العسكري.
- نعم قبضنا على محمود الزهار لا لكي نسجنه ولكن لكي نحقق معه، وقد أكد أنه لا ينتمي إلى كتائب عز الدين القسام، وهو الآن في المراحل الأخيرة من التحقيق، لكننا - مع ذلك - لانقبض على أى شخص ينتمي «لحامس» نحن نقبض - فقط - على من يعمل ضد السلطة الوطنية الفلسطينية ويخطط لحماس أو يمولها ونحن نطلب منهم أن يتحولوا إلى أحزاب سياسية معترف، بها بدون ذلك سنستمر في مطاردتهم والقبض عليهم ونزع الأسلحة منهم حتى تكون هناك سلطة واحدة للفلسطينيين وليس سلطتان، وحتى لو سقط عدد من الضحايا في هذه المعركة فلن نتوقف.

- ولكن ألا يوجد أسلوب آخر غير أسلوب توسيع دائرة الاشتباه؟.

- كل الدول في الأزمات تلجأ لتوسيع دائرة الاشتباه على اعتبار أن التحقيق يفرض المتورط والبرئ. والحمد لله أن التحقيقات تجري بمنتهى العدالة ولا نفترض في

■ لا سلام ولا كلام ■

الشخص المقبوض عليه أنه مجرم عليه إثبات براءته، بل العكس هو الصحيح. ولكننى أريدك أن تعلم أن حماس التى تبكى منها إسرائيل اليوم هى صناعتها، لقد ساعدت إسرائيل حماس أثناء الانتفاضة حتى تقوض منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد أن توقفت الانتفاضة انقلب السحر على الساحر وأصبحت حماس - وليس المنظمة - هى التى تسرق النوم من عيون الإسرائيليين.

الفصل الثامن

داخل الهرم الفلسطيني؟!!

**وكاننا اتفقنا أن نمارس أدوارنا في مسرحية السلام..
لا لكي نوصل رسالة إلى العالم، ولكن لأننا
فقدنا الثقة في أننا نستطيع تحريك
(الوزير) من مكانه لنقول لأمريكا وإسرائيل
(كش ملك)**

■ لا سلام ولا كلام ■

من حق الشعب الفلسطيني أن تكون له شرطة، لكن إسرائيل أرادت لها شرطة ضد من يعمل ضدها. وهذا الرصاص الذي سمحت لهم به، وهذا العدد الضخم من بنادق الكلاشينكوف موجه إلى صدور فلسطينية!

لم يتركني محمد بعد أن خرجنا من مركز قيادة الشرطة الفلسطينية، لكنه ظل واجماً أثناء سيرنا لا يتحدث، يركل الحجارة بقدميه بحركة لاشعورية، حتى قلت له: هذه الحجارة لا تترك بالقدم، وبسرعة التقط المعنى الذي أرمى إليه فقال لى: لا يوجد حجر مقدس إلا فى مكة. الحجر الاسود فقط هو الذى نقبله ونحتضنه، أما حجارة الشوارع فتتوقف قيمتها على اليد التى تستخدمها والفكرة من وراء استخدامها، كانت مقدسة حين احتضنتها مع اخوانى الشباب والاطفال وتحولت فى ايدينا إلى صواريخ «توماهوك» التى يقول عنها الأمريكان أنها لا تخطئ الهدف، أما الآن فهى عاطلة مثلى تماماً، إذن هى لا تستحق أن تكون مقدسة، وأنا لا أستحق أن أوصف بالبطولة.

قلت لمحمد: هل تعارض أتفاق اوسلو للسلام؟

- فقال بدون تردد: نعم أعارضة ولكننى لن أقول لك لماذا. سأترك المهمة لمن هو أقدر منى على شرح ابعاد هذا الاتفاق.
- من تقصد؟

- الدكتور حيدر عبد الشافى.. هرم غزة الأكبر والوحيد.

- أنا أتوق - بالفعل - إلى لقاء هذا الرجل ولكن غداً صباحاً أفضل.. فلا بد أن كهلا مثله لا يسهر حتى هذه الساعة.

- الأهرام لاتنام يا صديقى. ولكن من الأفضل أن تلتقى به فى الغد لأننى

■ لا سلام ولا كلام ■

سأصحبك الآن إلى مقر رئاسة الدولة الفلسطينية، ألا تريد أن ترى المبنى الذى يمثل السلطة الفلسطينية؟.

- ولكننى لا أريد أن أقابل أى شخص منهم: فكل ما عندهم تنقله الصحف ووسائل الاعلام، ومع ذلك لا بأس من إلقاء نظرة.

وذهبنا إلى هناك، مبنى متواضع أشبه بمبانى الإصلاح الزراعى فى القرى المصرية، الشئ الوحيد الذى يميزه هو علم فلسطين والسيارات المرسيديس والبي.ام. دبليو التى تنتظر أمامه!.

وقفنا هناك قليلاً نتحدث مع جنود الحراسة ولم يكن يقطع حديثنا إلا أصوات السيارات الفاخرة السوداء التى تمرق من جوارنا فينظر محمد إلى رقمها ويخبرنا باسم صاحبها

الآن فهمت الرسالة التى كان محمد يريد أن يوصلها لى دون أن يتكلم، فاستأذنت الجنديين فى الانصراف.

قلت له: أنت تعتقد - ومعك كل الحق - انه لولا أنتفاضتكم ماجاء هؤلاء السادة من مناهم بسياراتهم الفاخرة ومكاتبهم الوثيرة وأجهزه تكييف غرف نومهم، بينما أنت وأمثالك تهيمون على وجوهكم فى شوارع غزة. أليس كذلك؟.

- بصوت منكسر واهن أجابنى محمد: ما أريدك أن تعرفه أن قلبى لايعرف الحقد، فأنا لا أريد سيارة ولا مكتب ولا جهاز تكييف.. على الأقل الآن. كل ما أريده أن يفهم هؤلاء أن إسرائيل خدعتنا لأنها لا تريد سلاماً. أريدهم أن يكفوا عن القبض على الشباب إرضاء لإسرائيل، لأن اليهود لن يرضوا عنا، ألم يقل الله فى كتابه العزيز: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى». أريد ألا تحيل السلطة الوطنية الفلسطينية التراب على الأيام التى حاربنا فيها بالحجارة، والشهور الطويلة

■ لا سلام ولا كلام ■

التي قضيناها في السجن، والشعر الأبيض الذي غطى رؤوسنا رغم أننا في حكم الزمن مراهقون. هذا هو جوهر الرسالة الذي أريدك أن تنقله لشباب مصر ولشباب العرب، والآن سوف اتركك وأذهب إلى معسكر الشاطئ كي أطمئن على الشباب.

تركني محمد في منتصف الطريق إلى الفندق بعد أن وضع الأغلال في يدي وقدمي ولساني، ماذا يفعل الشباب العربي الذين هم في سن محمد هذه اللحظة؟، هذا هو الخاطر الذي داهمني وأنا أحاول للممة بعضي من بعضي. فما قيمة كل شيء وأي شيء بجوار العشرين عاماً التي انقضت من عمر هذا الشاب الذي لم يعرف الطفولة، ولم يمر بمرحلة المراهقة؟ ما قيمة ما سأكتبه بجوار ما كتبه محمد وزملاؤه؟ لقد أضرم هذا الشاب حريقاً في غرفة جلوسى مع نفسى، ولم يدلنى على الماء الذي سأخمد به نيرانه، فلماذا كنت تقف بجوار التليفون وأنا أحادث قائد الشرطة؟ ولماذا تطوعت للمجيء معي؟ ولماذا لم تسأل العميد الجبالي السؤال الذي كان يلح عليك؟

وطال على الليل، وأنا استعرض الساعات القليلة الطويلة والعامرة التي مرت بى منذ هبوطى من منزلى بالحلمية، وحتى وقوفى الآن فى شرفة غرفتى بفندق الأمل بغزه استجدى الصباح حتى لايتأخر عنى، حتى إذا ما فشلت محاولاتي رسمت أمامى صورة الدكتور حيدر عبر الشافى الذى سوف أزوره غداً. ذلك الطبيب الثرى الذى رفض مغادرة غزه فظل فى بيته مع زوجته، وبقي فى مستشفى مع مرضاه، وأصبح رمزاً من رموز الصمود الفلسطينى، وعندما رأس وفد فلسطين فى مفاوضات واشنطن فضح نوايا اسرائيل وكشف الأعيب مفاوضاتها. وعندما وقع عرفات على اتفاقية أوسلو، رفضها جملة وتفصيلاً. وظل على موقفه

■ لا سلام ولا كلام ■

لايتزحزح قيد أنمله. ومع ذلك رشح الرجل نفسه فى المجلس الوطنى الفلسطينى وحصل على أعلى نسبة ليظل الهرم الشامخ الذى ينظر إليه الفلسطينيون بقداسة وحب واحترام.

ولأن حيدر عبد الشافى حين أعلن مبررات رفضه كان يقرأ المستقبل، أصبح الجلوس إليه فى هذه الظروف محاولة أخرى لقراءة مستقبل أبعد وأعمق.

وحين جلست أمام ذلك الهرم حاولت أن أكسر حاجز السن وحاجز الغربة حتى أدلف إلى أعماقه من أقصر طريق، قلت له: سمعت أن القهوة التى يشربها الضيف فى بيت حيدر عبد الشافى تترك ذكرى لايمكن أن تمحى!

فرد الرجل وهو يضحك: ياترى ذكرى طيبة أم ذكرى...؟

فقلت له: بل ذكرى مفعمة برائحة الوطن وطعم الصمود وحلاوة الإيمان بهدف نبيل من الميلاد حتى الممات.

انحسرت ابتسامته قليلاً وهو يعقب على: أنت لخصت قصة حياتى أكثر مما وصفت القهوة التى تصنعها زوجتى.

دكتور حيدر.. كل شئ فيك وديع يجنح إلى السلم، لكنك أصبحت تحمل لقب الصقر الأول المعارض لاتفاق اوسلو للسلام. هل تتكرم وتحل لى هذه الفزورة؟.

نظر «الختيار» بعيداً كأنه يستدعى احداثاً ابتلعتها الايام ثم قال: لا.. ما هكذا تورد الإبل كما يقولون، فنحن كفلسطينيين التزمنا من البداية بالسلام منذ أن اتخذ المجلس الوطنى الفلسطينى قراره بقبول مبدأ الدولتين كأساس للمفاوضات لإنهاء النزاع الفلسطينى الإسرائيلى. حدث ذلك فى نوفمبر ١٩٨٨، وبناء على هذا

الالتزام الذى رفضته إسرائيل لم يكن من الصعب على الفلسطينيين المشاركة فى عملية السلام التى تبنتها أمريكا وروسيا فى آخر سنة ١٩٩١ وبدأت فى مدريد وتواصلت فى واشنطن. ومنذ أن بدأنا المفاوضات كان واضحاً أن إسرائيل لا تريد أن تلتزم بمرجعية السلام وهو قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى ينص على عدم جواز الاستيلاء على اراضى الغير بالقوة وينص على أهمية الانسحاب وإرساء السلام على أساس حق الفلسطينيين فى تقرير المصير. ولهذا بقيت مفاوضات واشنطن التى كنت رئيساً لوفد فلسطين فيها فى مأزق طوال الوقت، والسبب كان عدم قبول إسرائيل بوقف عملية الاستيطان التى كانت متناقضة مع مرجعية السلام، ومتناقضة مع أسس عملية السلام التى تقول لايجوز الإقدام على أى عمل فى الاراضى المحتلة يمكن أن يؤثر على المفاوضات النهائية لتحديد الوضع النهائى لتلك الأراضى. وكان استمرار إسرائيل فى الاستيطان هو العامل الذى لا يمكن أن يتماشى مع السلام، كانت وجهة نظرنا كوفد فلسطينى أن توقف إسرائيل عملية الاستيطان كى تعطى المصدقية لعملية السلام، لكن إسرائيل رفضت ومن ثم حدث المأزق التفاوضى الذى استمر طوال فترة المفاوضات.

وينظر د. عبد الشافى فى فنجان قهوته الخالى ثم يضيف: فى ظل هذا المأزق جاء اتفاق أوسلو، وزعموا فى حفل التوقيع بأن هذا الاتفاق أزال كل المصاعب، وأن السلام على الأبواب، إلى آخر كل ما قيل فى حفل التوقيع من قبل أمريكا وإسرائيل وبموافقة سلطتنا الفلسطينية. هذا الادعاء تبين بعد وقت قصير بأنه إدعاء كاذب، فما حدث أن العالم وضع تحت الوهم بأن العقوبات أزيلت وأصبحت الطرق ممهدة. إسرائيل استغلت هذا الوهم، وبينما كانت تدعى بأنها جمدت الاستيطان أثناء مفاوضات واشنطن، بدأت تنشط فى العملية بعد اتفاق اوسلو. ولذلك من البداية أفقدت إسرائيل عملية السلام مصداقيتها، ومع هذا، وبرغم أننا

■ لا سلام ولا كلام ■

كنا نطالب السلطة الفلسطينية بإطلاع العالم على حقيقة الموقف.. ليكون العالم على علم حتى لا يأتي أحدهم في نهاية المطاف ويسألنا: لماذا لم تقولوا ذلك من البداية؟. إن الذى كان يحدث منذ البداية وحتى اليوم أقرب إلى أن إسرائيل تُملى ارادتها على الجانب الفلسطينى، خصوصاً أن أحد عيوب اتفاق أوسلو هو أنه ترك كثيراً من المسائل قابلة للتفسير بشكل أو بآخر وهذا أتاح لإسرائيل أن تفرض وجهة نظرها باستمرار.

على خلفية هذا الوضع بدأ إخواننا فى حماس ممارسة أعمالهم المسلحة. أنا أقول نحن ضد هذه العمليات لأكثر من سبب..

أولاً: لطبيعتها غير الانسانية التى جعلتها محل انتقاد من العالم كله.

ثانياً: لأنها لا تدفع بقضيتنا إلى الأمام، وتقدم الذرائع لإسرائيل لتمنع فى عقوباتها الجماعية ضدنا، ولذلك أنا غير راض عن ذلك، كما لا أَرْضَى أن ينفرد أى جانب فلسطينى بالقرار وحده، لأن النتيجة أن إسرائيل اتخذتها كذريعة وفرضت رأيها على السلطة الفلسطينية.

قلت للدكتور حيدر عبد الشافى: ألا تدعو السلطة الفلسطينية لاتخاذ موقف ما إزاء ما يحدث؟.

فقال: لا يجب أن نقول مثلما يقول الآخرون فى إسرائيل وأمريكا أن هدف حماس هو تقويض عملية السلام، لأن عملية السلام مقوضة من الأصل وفاقدة لمصداقيتها بسبب إسرائيل. لذلك إذا كنت أدعو السلطة الفلسطينية إلى إيداع هذه الاعمال المسلحة فيجب أن نقول فى نفس الوقت أن إسرائيل تتحمل مسؤولية كبيرة من وراء هذه الاعمال لأنها تعطى السبب للفلسطينيين جميعاً - وليس حماس فقط - للدفاع عن انفسهم ضد الاحتلال. ومن حق الانسان المحتل أن يلجأ

إلى كل الوسائل لمقاومة الاحتلال بما فيها الكفاح المسلح المشروع ولكن ليس بهذا الطابع اللا انساني ويبقى أنه من حق الشعب الفلسطيني اللجوء للعمل المسلح. إن إسرائيل ترفض حتى الآن الاعتراف بحق تقرير المصير وقيام دولة فلسطين المستقلة التي عاصمتها القدس وحقوق اللاجئين كما نصت عليها قرارات الامم المتحدة.

- قلت للدكتور حيدر عبد الشافي: أنا حتى الآن لا أعرف على وجه الدقة هدف حركة حماس من العمليات الانتحارية، البعض يقول انه تقويض عملية السلام، لكن ذلك مردود عليه كما تفضلت، والبعض يميل إلى أن الهدف هو ضرب السلطة الوطنية الفلسطينية وفرض أنفسهم كبديل، والبعض ييسط الأمور زاعماً أنها مجرد عمليات للفت النظر وليس أكثر. أعتقد أن لديكم تفسيراً مغايراً لكل ذلك.

- ويذهب الدكتور حيدر للرد على مكالمة هاتفية طالت قليلاً لدرجة أنني ظننت أنه - لكبر سنة - سوف يطلب مني تذكيره بالسؤال لكن الرجل «الثماني» بمجرد أن اعتدل في جلسته قال لي: أعتقد أن فلسفة حماس هي تحرير الأرض كاملة، معنى هذا أنها لاتعترف بإسرائيل. إذن السلام العادل من وجهة نظرهم ينطوي على تحرير التراب الكامل، وأنا أرى أن السلام العادل هو حق الفلسطينيين في قيام دولتهم المستقلة كباقي الشعوب في اطار قرارات المجلس الوطني التي قبلت مبدأ قيام الدولتين، هذا هو الفرق بيني وبين حماس. وأنا لآأتهم حماس بأى تهمة ليس لها أساس من المنطق أو الحقيقة ولا أستطيع أن اصدق أن ايران تمول حماس، ولا أستطيع أيضاً أن أرفض ذلك.

- دكتور حيدر.. لقد فهمت من كلامك - وأرجو أن تصحح لي إن كان الأمر قد التبس على - إن إسرائيل لاتريد سلاماً حقيقياً، أليس كذلك؟.

■ لا سلام ولا كلام ■

- أجباني الدكتور حيدر: نعم وبكل تأكيد هي تريد سلاماً بشروطها هي، وليس على شروط الحق والعدل، والسلام لا يمكن أن يستمر إلا على أساس الحق والعدل.

- قلت للهرم الفلسطيني: انت تقول أنك موافق على مبدأ قيام الدولتين الذي أقره المجلس الوطني. حسناً. الوضع الآن في إسرائيل.. وأنا قادم من تل أبيب.. أنهم لا يريدون سلاماً بقدر ما يريدون أمناً شخصياً، ولأن الأمن الشخصي لم يتحقق تم فرض الطوق الأمني والتجويع الجماعي. على الجانب الفلسطيني الجميع متفق على هدف واحد - رغم اختلاف الوسائل - وهو ضرورة قيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس. فهل من الممكن أن تلتقي رغبة الشارع هناك مع رغبة الشارع هنا؟

- يطلب الدكتور حيدر مزيداً من القهوة قبل أن يقول لي: المسألة - يابني - تكمن في الموقف الإسرائيلي. فكما هو واضح إسرائيل تثير دائماً قضية الأمن. ومع الأسف هي تثير عواطف العالم والناس بانارتها لهذه القضية. فالناس تعتبر أن من حق الناس كلهم أن يتمتعوا بالأمن. إسرائيل - إذن - تثير نقطة حساسة خاصة وأن أوروبا وبسبب ما حدث لليهود فيها أصبحت أكثر حساسية لذلك، ونحن لسنا ضد الأمن، ولكن الأمن المرهون بالعدل والإنصاف فلا تستطيع إسرائيل أن تطالب بالأمن والأرض معاً كما تفعل، لا بد أن تختار، إما الأمن أو الأرض. وطالما تستغل قوتها لسلب الأرض الفلسطينية وإنكار حق الفلسطينيين في وطنهم وفي أرضهم فلا يمكن أن تتمتع بالأمن ولا يجوز أن تطالب بالأمن، لكن إذا تخلت عن نهجها العدواني فلن يعتدي الفلسطينيون على أمنها.

- هل أنا محق - يادكتور حيدر - أن أعقب على كلامك بأن السلطة الفلسطينية


بهذا الشكل مجرد مقاول من الباطن استخدمته إسرائيل لتنظيم مناطق الحكم الذاتي إدارياً؟.

- فقال: مع الاسف إسرائيل جعلتها على هذه الصورة تفعل ماتريده إسرائيل وليس ما يريد الشعب الفلسطيني، تصور أن إسرائيل لم تكتف بالطوق الأمنى بل فرضت حصاراً بحرياً ومنعت الصيادين الغلابة من الصيد ويعلم الله إلى متى يستمر ذلك، وبأى حق يفرضون هذا الحصار، إنه حط من شأن السلطة الفلسطينية فكيف يتكلمون عن دولة مستقلة وهناك طرق فى غزة ممنوع على الفلسطينيين السير فيها.

- إذا كانت يد السلطة الفلسطينية مغلوطة بهذا الشكل، فما معنى وجود المجلس التشريعى الفلسطينى، وأى دور يمكن أن يقوم به هذا المجلس. التساؤل خطر لى ولم أخجل من طرحه على الدكتور حيدر عضو المجلس التشريعى.

- لكن الرجل لم يغضب للطرح.. بل قال لى: يجب أن نعمل جميعاً لى يكون لهذا المجلس دور فاعل، فهذا المجلس حملته الجماهير الفلسطينية أمانة الدفاع عن مصيرها ومصالحها وعن كل حقوقها، نحن نحمل أمانة ولا بد أن نعمل.

- عفوا دكتور حيدر أنت لم تجبنى، بل زدت الصورة الفلسطينية قتامة مما يجعلنى أتساءل: ألا توجد بقعة ضوء واحدة؟.

- يقول الدكتور عبد الشافى: بقعة الضوء هى رهن بارادتنا كفلسطينيين. إذا أردنا أن نعمل من خلال هذا المجلس بصدق وإخلاص فقد تُضَيء الصورة بعض الشئ، فواقع الحال الذى نحن فيه يقول أن إسرائيل قوية ومعتدية وليس  قبل بقدرتها العسكرية والعالم يقف موقف المتفرج واللامبالى ويقيم مع هذه الدولة

■ لا سلام ولا كلام ■

المعتدية علاقات طبيعية بل علاقات مساندة. فنحن فى موقف حرج، وكل ما نستطيع أن نفعله أن نصمد على الأرض التى نحن فيها ولا نخرج، ونحاول من خلال امكاناتنا المحدودة مواصلة الصمود النابض بالحياة.

- دكتور حيدر نحن الآن نجلس فى بقعة من الأرض محاصرة، وأنا أعلم أن أهل غزة قادرون على الصمود، لكننى أعلم أيضاً أنهم بشر، والبشر طاقاتهم محدودة، فإذا كان هذا الحصار الإسرائيلى عقاباً جماعياً فىلّى متى.. ومتى يرفع؟ وإذا كان ورقة ضغط.. فعلى من.. ولماذا؟.

يعود الدكتور حيدر إلى أسلوب التنويع على نغمة واحدة قائلاً: الحقيقة أن الأمور تزداد سوءاً يوماً بعد اليوم، والسلطة الفلسطينية بانفعالها تتركب المزيد من الأخطاء، وأنا أفهم أنهم يلاحقون عناصر من حماس ويقبضون عليهم على اعتبار أن هذا يندرج تحت بند الحفاظ على الأمن وتطبيق القانون، ولكن ما هو المبرر لإغلاق مؤسسات حماس المدنية التى تخدم الجمهور مثل العيادات والمدارس، وهذا عمل مناقض للقانون وحقوق الانسان، إسرائيل نفسها لم تقدم على مثل ذلك. هذه سلبيات نريد أن نتصدى لها ليس بروح الخلاف ولكن بروح الحق والعدل والقانون، إن الشارع الفلسطينى اليوم فى حيرة من أمره إزاء ما فعلته حماس، ففى قرارة نفس أى فلسطينى يبارك هذا العمل على اعتبار انه عمل مشروع ضد المحتل الذى لا يريد اعطاءنا حقوقنا، وفى الوقت نفسه يعانى المواطن من الطوق الامنى الذى تطبقه إسرائيل بقسوة واضعة الجميع فى سلة حماس.

- بودى أن أعرف منك قبل أن أنصرف: هل تطلق على عمليات حماس جهاداً أم إرهاباً؟.

- كان هذا هو السؤال الأخير للدكتور حيدر عبد الشافى، لكن الطبيب الذى

■ لا سلام ولا كلام ■

عركته السياسة راوغني وقال: أنا لا أريد أن أنصب نفسي محامياً عن حماس، كما أن كل أفكارى معلنة وليس عندي ما أخفيه، وعمل حماس يكتسب صفته كعمل مضاد للاحتلال ومن حق أى شخص يعاني من الاحتلال مقاومة المحتل، لكننى كما قلت لا أرضى عن طبيعة هذا العمل.

آن لى الآن إغلاق جهاز تسجيلى والانصراف من البيت الذى لم يهجره صاحبه ليناضل بحنجرته من مكان آخر بعيداً عن الوطن.

وحين اشترطت إسرائيل أن يكون رئيس الوفد الفلسطينى فى مفاوضات واشنطن من فلسطينى الداخل.. ظنت أنهم سيكونون لقمة سائغة للمفاوضين الإسرائيليين الذين يأخذون ولا يعطون ومن أول جلسة يحضرها حيدر عبد الشافى أدركوا أنهم أخطأوا فى تقدير حساباتهم، وحين حاولوا تصحيح الخطأ حصلوا من مناضلى الخارج ما لم يقبل حيدر عبد الشافى مجرد الخوض فيه.

خرجت من هذا البيت أرى أمامى المستقبل قائماً وزاد يقينى بأن كعكة السلام ليست للأكل ولكن للعرض فى فاترينه محل الحلوانى الإسرائيلى، لم يكن فيها دقيق ولا سمن ولا سكر ولا كريمه، كان كل ما فيها «بلاستيك» يذوب تحت حرارة شمس الحقيقة المرة التى نعرفها ونتوارى منها وكأننا اتفقنا أن نمارس أدوارنا فى مسرحية السلام لا لكى نوصل رسالة إلى العالم، ولكن لأننا فقدنا الثقة فى أننا نستطيع تحريك «الوزير» من مكانه لنقول لأمرىكا وإسرائيل «كش ملك».

الفصل التاسع

اعداد مليون زهرة!

** لقد عاش الإسرائيليون ٥٠ سنة في
هذا الخوف، وسيعيشون مثلها إذا
ظلت أفكارهم كما هي، ولن يهنا لهم بال
حتى لو وضعوا جنديا إسرائيليا
خلف كل مواطن فلسطيني! **

هل هناك علاقة بين مدينة غزة التي أسير الآن في دروبها وبين مدينة دمياط التي هاجرت إليها وعائلتي مع بدء حرب الاستنزاف؟

نعم هناك علاقة: إسرائيل!

إسرائيل هي التي تسببت في فرض نوع من الحصار علينا في دمياط، وها أنا محاصر مع أهل غزة داخل الطوق الأمني الذي فرضته إسرائيل.

في دمياط حرمت على أمي مصروف الجيب وتذوق طعم اللحم إلا قليلاً، كانت النقود التي يرسلها أبي الصامد في بورسعيد تكفي بالكاد لإطعامنا بأشياء ليس بينها اللحم. حرمتني إسرائيل - وأنا في دمياط - من دخول السينما لأنها أصبحت ترفاً، ومن شراء روايات لحبيب محفوظ، ومن اقتناء حذاء كاوتش ألعب به الكرة مع أقراني في الشارع.

وفي غزة شربت كوب الشاي بنصف ملعقه سكر، ليس من أجل الريحيم، ولكن بسبب شحه. في غزة أكلت رغيفاً واحداً يومياً لأن الدقيق أوشك على النفاد. في غزة سرت على الكورنيش البائس ورددت نفس الأغنية التي كنت أرددتها على كورنيش دمياط: «عدى النهار.. والمغربيه جايه.. تتخفي ورا ضل الشجر. وعشان نتوه في السكه.. شالوا من ليالينا القمر، وبلدنا ع الترة بتغسل شعرها.. جاها نهار ما قدرش يدفع مهرها».

كان عبد الحلیم حافظ يفرقنا بهذا المقطع «الأبنودي» في جو الحزن والكآبة والنكسة.. قبل أن ينتشلنا بأطواق النجاه حين يقول: «أبدا بلدنا للنهار.. بتحب موال النهار».

لكنني.. ولشيء خارج عن إرادتي لم أستطع ترديد هذه الجملة الأخيرة وأنا أسير على كورنيش غزة، هل لأننا كنا في الليل، أم لأن شمس النهار تبدو بعيدة عن شدة البقعة المظلمة.. التي تزيد إظلاماً كلما قابلت شخصية فلسطينية جديدة!.

■ لا سلام ولا كلام ■

حتى مروان كنفانى المتحدث بإسم الرئيس عرفات رغم البدلة الإيطالية الفاخرة التى يرتديها.. ورغم العطر الباريسى الذى يفوح منه.. ورغم السيارة الألمانية التى تنتظره بالخارج، لم تفلح كل هذه «الكماليات» فى إخفاء الانكسار فى نظرة عينيه، والوهن فى نبرة صوته، واليأس وهو يرنو إلى الغد، والعرشة التى تكبل قبضة يده وهو يضرب بها على مكتبه مردداً: إسرائيل لاتريد السلام.. إسرائيل لاتريد السلام.

لابد أن أبحث عن شخصية هنا «تلطخ» هذه اللوحة السوداء، بنقطة بيضاء عليها تتمدد فوق هذا السواد لتضىء جزءاً منه.

وهكذا قررت أن أذهب إلى السفير محمود كريم ممثل مصر لدى السلطة الوطنية الفلسطينية، وعلى عكس سفيرنا فى تل أبيب، الناس هنا - فى غزة - لا يحبون السفير كريم كثيراً لسبب ليس له علاقة به، فأكثر من ٨٠٪ من شباب غزة يريدون الحصول على تأشيرات دخول لمصر، لكن الرجل ينفذ التعليمات ولا يمنح التأشيرة إلا للمرضى الذين يعالجون بمصر.

ومحمود كريم كان يشغل منصب مدير إدارة فلسطين بوزارة الخارجية المصرية قبل أن يصبح سفيراً فى غزة، ولذلك فهو يحفظ دهاليز القضية ولا يضل الطريق فى ذلك «التيه» أبداً.

حينما حادثته من فندق الأمل طلبا الموعد، شعرت فى صوته بحنان الأب، وجدعنة أولاد البلد التى اختفت إلا من روايات لمحبيب محفوظ، قال لى: تعال لى حالاً.. هل أرسل لك سيارتى؟.

شكرته وطلبت منه العنوان فقال لى: على نفس الرصيف المقابل للفندق الذى تحدثنى منه، فقط ستسير خمس دقائق فى الاتجاه المعاكس للبحر، وبعدها ستجد علم بلدك أمامك.

■ لا سلام ولا كلام ■

ظفرت دمة من عيني وهو يقول لى «علم بلدك» وكأنه سألنى ساعتها: «ألم تفتقد مصر.. ألا تشعر بالحنين إليها؟».

خمسة أيام وأنا بعيد عن الوطن. الساعة التى تفصل ما بينى وبينه كأنها دهر وعزائى الوحيد اننى الآن فى غزة وليس فى تل أبيب.

وها هو علم مصر كما وصفه لى السفير محمود كريم.. يرفرف فوق مبنى صغير مكون من دورين، ليس هناك حراسة على بابه.. ولا يوجد موظف أمن يسألك بجلافة: «رايح فين؟». فى الصالة الخارجية يجلس سبعة فلسطينيين كبار السن فهمت من حوارهم مع أحد موظفى السفارة أنهم يريدون العلاج فى القاهرة.

وحين أدخلنا ذلك الموظف إلى مكتب السفير اعتذر لنا لأننا سننتظر قليلاً لحين انتهاء السفير من صلاة الظهر. وبعد خمس دقائق فتح الباب ودخل منه الرجل مرحباً ومعانقاً وكأنه يعرفنا منذ زمن بعيد، وعاتبنى بشدة بعد أن علم أننى وصلت غزة منذ يومين وقال أننى كان يجب على أن أمر على بيتى أولاً، فقلت له: بعد ما حدث لى فى سفارتنا بتل أبيب قررت أن أعتمد على نفسى ولا أضيّق أحداً بوجودى، ولم يسألنى الرجل عن تفاصيل ما حدث هناك واكتفى بقوله: انت إذن لم تسمع عن محمود كريم، على العموم أتمنى أن تكون رحلتك موفقة صحفياً، أعلم انها صدمتك وهذا واضح على ملامحك.. ولكن اعتقد أن هذا سيفيدك صحفياً.. إلا إذا كنت قد جئت من أجل السياحة، ثم ضحك طويلاً محطماً ذلك. الحاجز الذى يلازم أول لقاء. الآن أشعر أن هذا هو اللقاء المائة مع هذا الرجل الطيب العفوى الذى اعتبرنا من أهل بيته وقال: اسمعوا.. أنا هنا وحيد ونفسى فى أكله سمك على البحر و.. وكاد ينسينى ما جئت إليه من أجله حتى دق جرس الهاتف بجواره ليقول لنا بعد انتهاء المكاملة: هناك اجتماع مع الرئيس عرفات بعد

ساعتين، الأمور تزداد تعقيداً، فانتبهت إلى مهمتى وقلت له: وهل كنت تتوقع وأنت الخبير بشئون فلسطين أن يطول شهر العسل؟.

فقال الرجل: بالطبع لا، ولكن الذى لم أتوقعه هو الإجراءات الشرسة التى اتخذتها إسرائيل فى أعقاب عمليات حماس، وللأسف لم يركز عليها الاعلام المصرى وفضل التركيز على ردود الفعل العالمية إزاء ما فعلته حماس، لكن أنت رأيت على الطبيعة ما قامت به إسرائيل، إجراءات غير مسبقة لم تحدث حتى فى حرب الخليج، ولم تحدث فى ظل أشد حالات الاحتلال الإسرائيلى، وأقول لك أيضاً أنها لم تحدث أيام الانتفاضة. لك أن تتخيل ٥٦٠ قرية فلسطينية معزولة عن بعضها البعض، والمدن أيضاً ممنوع التحرك بينها، والنتيجة أنك لا تستطيع إخراج منتجاتك ولا تستطيع إدخال ما تحتاجه فى قطاع غزة. هنا يتم اعدام مليون زهرة يومياً. هذه الزهور التى تنافس الإنتاج الهولندى وكانت تذهب إلى هناك رأساً عن طريق المصدر الإسرائيلى الذى يتحكم فى كل شئ، فهنا لا يوجد مصدر فلسطينى أو مستورد فلسطينى، كل إنتاج القطاع تأخذه إسرائيل وتتحكم فيه وتكتب عليه صنع فى إسرائيل وتأخذ عمولتها، ومصر للأسف لا تريد أن تقوم بهذا الدور. مصر التى تصدر لاستراليا ما قيمته ٧ مليون دولار لها مكتبان هناك، أما قطاع غزة الذى يستورد منا ما قيمته ٦٠٠ مليون دولار، أى أكثر من نصف دخل قناة السويس فليس لنا مكتب تجارى!.

ويعود السفير كريم إلى الإجراءات الإسرائيلية مرة أخرى قائلاً: قطاع غزة مصدر لحاجتين: العملة التى تعمل فى إسرائيل والضفة الغربية، والخضار والفاكهة. وليس هناك مورد ثالث. لا توجد سياحة.. ولا توجد صناعة.. ولا توجد تحويلات، ولك أن تعلم حال الناس هنا، أنهم يتضورون جوعاً، يحصلون على رغيف الخبز بصعوبة، كان هناك ٣٠ ألف عامل فلسطينى يذهبون كل صباح إلى

إسرائيل.. يتقاضى الواحد منهم ١٥٠ شيكل - على الاقل - يومياً، يعني ١٥٠ جنيه. أنا متفق معك فى أنهم تدربوا على الحياة فى مثل هذه الظروف، لكن الجديد هذه المرة أن إسرائيل منعت نقل المرضى إلى مستشفيات الضفة والقدس، فالمستشفى الوحيد هنا لا يصلح، انها جريمة دولية ترتكبها إسرائيل لأن هؤلاء المرضى يأخذون جرعات ينبغي أن تكون منتظمة، ومعنى أن تمنعهم أنها حكمت عليهم بالاعدام. إسرائيل منعت - أيضاً - دخول الصحف، وممنوع على الدبلوماسيين أن يأتوا إلى هنا، هل تصدق أن وزير خارجية المانيا عانى الأمرين حتى يأتى إلى هنا ويقابل عرفات، أنا لا أعرف ما حدث لك فى أريز، لكننى واثق أنه عانى أكثر منك، وأنا أرى أن هذه الإجراءات التى اتخذتها إسرائيل ستؤدى إلى عكس ما تريده.

ويتساءل السفير محمود كريم: ماذا حدث بالنسبة للعملية السياسية؟ هناك ضغط على بيريز فى أن يوقف تسليم الخليل وإذا استسلم لهذا الضغط ماذا ستكون النتيجة؟ لن يجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى ولن يزيل البنود التى تريد إسرائيل ازلتها، ومن ثم سندخل فى مفاوضات ليس لها أول ولا آخر.

ولعلك تتساءل - مثل الكثيرين - عن السبب فى الإصرار على عقد مؤتمر صناع السلام يوم الاربعاء القادم؟ أنا أرى - وهذه وجهة نظرى الشخصية كرجل متابع للاحداث - أن إسرائيل كانت تعبئ الرأى العام لتقوم بعمليات فى المناطق التابعة للحكم الذاتى الفلسطينى. أى فى المنطقة «أ» التى تضم المدن الست فى الضفة والجزء الخاضع للحكم الذاتى من قطاع غزة، أنت تعلم أن القطاع مازال به ١٨ مستوطنة تضم ٢٠٠٢ مستوطناً، إلى جانب وجود مستوطنات خالية يغادرها اليهود كل يوم الساعة ٤ عصراً ويأتون إليها فى الصباح، هذه المستوطنات أشبه بالسرطان الذى يشع طوال الليل عملاء وقوات مستعربة يتحدثون العربية بطلاقة

ويدخلون بين الفلسطينيين هنا وينفذون عمليات تصفية لعناصر من حركة «الجهاد»، كل هذه الأشياء تأتي من المستوطنات الثماني عشرة، ولكن العمليات التي كانت ستقوم بها إسرائيل كان سينفذها الجيش الإسرائيلي وليس العملاء، خاصة وأن الشعب الإسرائيلي في حاجة إلى شيء يرفع من معنوياته، وبيريز في حاجة إلى شيء يرفع من أسهمه في الانتخابات القادمة.

سيادة السفير: ما معنى أن تبقى مدينة تحت الحصار...؟ وماذا سيحدث عندما تنفذ كمية الأغذية التي باعها مصر لفلسطين؟.

شوف.. كل بيت في غزة يضع في حساباته مثل هذه الأشياء، عندنا في الصعيد يقولون «ياما دقت على الراس طبول» هنا يقولون المثل ولكن بطريقة عملية، لقد عاشت هذه المدينة من قبل أربعين يوماً بلياليها في حصار كامل وحظر تجول أيام حرب الخليج، كانت إسرائيل تسمح للسيدات فقط بساعتين في آخر النهار للحصول على احتياجاتهن من السوق، باختصار كل بيت هنا يوجد به خزين. ولكن لا أستطيع أن أقول لك إلى متى يغنيهم خزينهم، أنت رأيت طوابير الخبز، هل تعلم أن هذه المدينة لم تعرف منذ نشأتها حكاية طوابير الخبز هذه؟ وأنا أريد بهذه المناسبة أن أقول لك ما الذي تستطيع مصر أن تفعله للفلسطينيين. طاقة منفذ رفح ٣٠٠ طن، لكن إسرائيل لا تسمح بدخول هذه الكمية وتعتمد الإعاقة لسببين، الأول هو أن تجبر الفلسطيني على الشراء من إسرائيل فقط! لقد فتح المنفذ للبضائع يوم ١ يونيو الماضي وبدأ التجار الفلسطينيون في إحضار كل المواد التموينية مثل السكر والدقيق والزيت والارز والمنظفات الصناعية من مصر. هل تتصور أن المنظفات الصناعية يجب أن تحلل عينة منها في المعامل المركزية في إسرائيل قبل أن تعطيك تصريحاً بالإفراج. وبهذه الطريقة غير مسموح إلا المنتج مصري واحد بالدخول إلى غزة! أنا وقفت في هذا المعبر أربعة أيام كاملة عندما

■ لا سلام ولا كلام ■

قدمت مصر هدية يوم ١٥ يونية الماضى عبارة عن مواد غذائية وأدوية الفلسطينيين. فلكى تدخل هذه المعونة لابد أن تكون الأدوية مسجلة لدى إسرائيل ومسموح بها، حتى السجائر لابد أن تكون نسبة النيكوتين بها مماثلة للنسبة المتداولة فى إسرائيل، هذا عائق كبير كما ترى، أيضا إذا أدخلت مصر رسائل دقيق تتعرض للبهذلة من طريقة الفحص والنقل الإسرائيلية.

قلت للسفير محمود كريم: أنت تتهم الاعلام المصرى بأنه لم ينقل ما تفعله إسرائيل بالفلسطينيين، ولنفرض أن الإعلام فعلها ونقل، فما الذى يمكن أن يحدث؟ إن العالم كله يرى العقاب الجماعى الذى تفرضه إسرائيل رغم أن الذى ارتكب الحوادث الأخيرة مجموعة أفراد ومع ذلك فالرأى العام العالمى يصدق دموع التماسيح الإسرائيلية ولا يلتفت إلى عذابات الفلسطينيين.

ويرد على السفير: العالم - يا صديقى - يخطب ود إسرائيل وهذا واضح تماماً. ومن متطلبات هذا الود ألا يتم تسليط الأضواء على ما تقوم به والذى لا يقل بشاعة عن الذى فعلته حماس. لن نقول من الذى بدأ، فالمعروف أنها حماس. لكن لماذا فعلت حماس ذلك؟ لأنه كان هناك اتفاق يجب أن ينفذ لكن إسرائيل تلكأت، ولناخذ قضية واحدة دون الخوض فى التفاصيل المعقدة للاتفاقية الفلسطينية الإسرائيلية وهى قضية المعتقلين والمعتقلات، لقد تدخل الرئيس مبارك فى هذه القضية شخصياً وقال لبيريز: نحن كعرب لا نقبل أن تبقى البنات والسيدات فى المعتقل، فيقول له بيريز: سوف نفرج عنهن يوم ٢٨ / ١. وقبل أن يضع السماعه مع الرئيس مبارك يكون قد ألقى القبض على آخرين مساوين فى العدد للذين سيفرج عنهم. كما أنه لايفرج عن المعتقلات السياسيات بل عن المجرمين والساقطات الذين لم تشملهم الاتفاقية، هذه واحدة، والثانية أن إسرائيل قامت بتصفية المهندس يحيى عياش وقتلوا ٩٠٠ فلسطينى، وهذا يعنى أن أى فرد

■ لا سلام ولا كلام ■

فى حماس أصبح غير آمن على نفسه لأن السلطة الوطنية الفلسطينية لاثميه، المفروض أن عياش كان فى المنطقة التابعة للسلطة.. أليس كذلك؟ فما معنى أن تدخل إسرائيل وتصفيه؟ هل عندك إجابة؟ هذا هو منطق حماس.. إذا كنت لاثستطيع أن احمينى، سأذهب أنا وأنفذ عمليات إنتحارية فى عقر دارهم طالما أن أيديهم ستصل إلى هنا. هذا هو تفكير حماس الذى توصلوا إليه عقب يقينهم بأن إسرائيل لن تفرج عن معتقليهم. إنهم يتساءلون: ماذا أخذنا من الضفة الغربية؟ ٣٠٪ فقط، وبعد أن يتم تطبيق الحل النهائى ستصبح ٦٠٪، إذن هناك ٤٠٪ ستظل فى يد إسرائيل، ومع ذلك تعاهدوا مع عرفات فى اتفاق القاهرة ألا يعوقوه فى تنفيذ الاتفاقية وظلوا عند كلمتهم حتى استفزتهم إسرائيل وقتلت عياش ومن قبله كحيل إلى جانب ٩٠٠ ألف عنصر من عناصرهم هنا، لاحظ أننى لا ابرر ما فعلوه ولكنى أقول لك كيف يفكرون.

سيادة السفير.. أنا أقول أن الشارع الإسرائيلى يكفر الآن بالسلام تماماً مثلما يكفر به الشارع الفلسطينى، مع اختلاف السبب، هناك جاء الكفر نتيجة أن السلام لم يأت لهم بالأمن، وهنا جاء نتيجة اكتشافهم أن الحكم الذاتى مجرد نكته غير مضحكة، وأن إسرائيل مازالت تحتلهم. فماذا تقول أنت؟.

أنا متفق معك فى هذا، إذاعة «البي. بى. سى» نقلت اليوم مقتطفات من الصحف الإسرائيلىة تقول فيها أن الناس ليسوا آمنين عندما يركبون الأتوبيسات ولا حتى عندما يفتحون الراديو حتى لا يسمعون أن أحد اقربائهم قد مات، إنه مجتمع يعيش فى قلق وهذا هو ما يجب أن يفهموه، لقد عاشوا ٥٠ سنة فى هذا الوضع وسيعيشون مثلها إذا ظلت أفكارهم كما هى. ولن يهنا لهم بال حتى لو وضعوا جندياً إسرائيلياً خلف كل مواطن فلسطينى، هذا لن يمنع الخطر الذى يخشونه، حاجة واحدة فقط هى التى ستمنعه.. أن تنفذ الكلام الذى اتفقت عليه..

■ لا سلام ولا كلام ■

أن تعطى للفلسطينيين حلاً سياسياً مرضياً، لا أن تعطيتهم على طريقة «من البحر للنهر». فهذا الكلام انتهى منذ زمن، واليوم لو أدت الضغوط التي يعاني منها الرئيس عرفات إلى سقوطه.. من الذى سيستفيد هنا؟ انهم المتطرفون.. الليكود، وفى المقابل سيحكم فى الطرف الفلسطينى الذين نفذوا عملية «ديز نجوف». من هنا لابد لإسرائيل أن تفهم أن هناك حد معين للضغط على السلطة الفلسطينية لأنها سلطة معتدلة وتسير فى اتجاه السلام ووقعت معك اتفاقيتين وتكون النتيجة أن نضعها فى موقف حرج.. أقله أن الناس لا تجد ما تأكله، إذن أنت تهىء الأوضاع لاندلاع ثورة جوع، وتغيير السلطة الفلسطينية ليس من مصلحة أحد وأولهم إسرائيل، فما أسهل أن تندلع الانتفاضة من جديد لأن الناس يربون الموقف بتحفظ.

إسمح لى - سيادة السفير - بالعودة إلى حماس. فمازلت حتى الآن - على كثرة ما سمعت - لا أعلم إن كان هدف حماس هو محاولة الضغط على إسرائيل للحوار معها وحدها كبديل لسلطة عرفات، أم أنهم يفعلون ذلك لأنهم ضد هذا السلام «الإسرائيلي». كما سمعت أنهم يتلقون أوامرهم وتمويلهم من إيران، ثم طفا رأى آخر يقول أنهم يلعبون لصالح الليكود ضد العمل إنها صورة ضبابية تجعل الحكم على الامور مهمة شاقة تحتل الفشل أكثر من النجاح.

ويقول السفير محمود كريم: لكى أكون أميناً معك ونحن نتحدث فى هذا الموضوع، لابد أن تكون كل معطيات الموقف أمامنا، أنت تستطيع أن تستنتج الاستنتاجات التى تريدها من خلال الطرح الذى طرحته عليك، لكن أنا فى تصورى أن الكلام الذى طرحته أنت يمكن أن يكون كله - مع بعضه - صحيحاً. فمن الممكن أن تكون عناصر من الخارج ضالعة فى الموضوع، من الممكن أن تكون رسالة من سوريا التى تحتضن ١٠ منظمات، إذن كل ما قلته وارد، لكن إذا أردنا أن

■ لا سلام ولا كلام ■

نرتبها تاريخياً ربما تكون كل العوامل المطروحة خاطئة، فأولاً موت الشقاقى وثانياً موت عياش مروراً بكحيلي ودبابش وعناصر كثيره من حماس والجهاد الاسلامى تعرضت للتصفية من إسرائيل، ولابد أنك قرأت المکتوب على جدران غزة. كتبوا أنهم سيجعلون العالم يرى ماذا سيفعلونه من أجل الثأر لعياش، إذن هى عملية ثأر أضيف اليها أن الناس هنا تشعر أنه لامستقبل سياسى أو اقتصادى لها، هذا إذن يعطيك تفسيراً آخر لعمليات حماس، والمعنى أن الأمور تداخلت بشكل سيئ.. إسرائيل وحدها هى التى رسمته وانعكس على الفلسطينيين الذين يريدون السلام ربما أكثر من الأمن الذى يريده الإسرائيليون.

قلت لسفير مصر فى غزة: من خلال متابعتى لراديو وتليفزيون إسرائيل ولقاءاتى فى تل أبيب، واستماعى لتصريحات وزراء إسرائيليين لاحظت أنهم يتهمون السلطة الفلسطينية بالتقصير فى أداء دورها، فداخلنى يقين بأن المطلوب من السلطة الفلسطينية - حسب التوجه الإسرائيلى - هو أن تكون ذراعاً أمنية لإسرائيل فى مناطق الحكم الذاتى، فإذا ما بطشت هذه الذراع بمن يسببون الصدام لإسرائيل.. ظهرت إسرائيل أمام العالم بأنها ليس لها شأن بما يحدث بين الفلسطينيين.. وإذا امتنعت هذه الذراع عن البطش علت الأصوات الإسرائيلىة تطالب بقطعها، هذا هو ما فهمته من المسئولية الإدارية والأمنية للسلطة الفلسطينية فى مناطق الحكم الذاتى، وهذه المقدمات لاتفصح عن نتائج تبشر بقيام دولة فلسطينية مستقلة.

يقول السفير: «حط نفسك مكان عرفات النهارده» الفلسطينيون لم يكن لهم وجود على الخريطة السياسية أو الجغرافية. كانوا مهددين بالنسف مثل الشعب الكردي والشعب الأرمني أو الشعوب الأخرى الموزعة بين عدة بلاد، هل يستطيع الأرمن والأكراد المطالبة بوطن لهم الآن؟ طبعاً لا، الفلسطينيون كانوا قاب قوسين

■ لا سلام ولا كلام ■

أو أدنى من ذلك.. بداية من محاولة عمل اتحاد كونفيدرالى مع الأردن على أن يرتبوا أى وضع لغزة. لكن عرفات لمجح فى أن يرفع العلم الفلسطينى على بعد ١٠ و١٥ كيلو من مقر حكومة إسرائيل. وأتصور أن تفكيره الآن هو: نحن كجيل أمضى ٥٠ عاماً فى التشرد لمجحنا فى زرع الأعلام الفلسطينية هنا.. وإذا أرادت الأجيال القادمة أن تفعل المزيد فنحن لن نضع حدوداً أمامها.

عرفات إذن كان يحلم برفع العلم الفلسطينى، وعندما انتخبه الشعب الفلسطينى قالوا نعم للعملية السلمية، ونعم للسلطة الفلسطينية ولكن هناك شئ آخر قيل فى الانتخابات وهو «خللى بالك». هذا الشئ قيل من خلال إعطاء أعلى الأصوات للدكتور حيدر عبد الشافى المعارض الأول لاتفاق أوسلو، هذا هو تصورى. أما إذا كانت حماس تريد مخاطبة إسرائيل والحوار معها كما قيل فلا بد أن يكون ذلك من خلال السلطة الوطنية الفلسطينية، وهذا حق عرفات عليهم.. فلا يجب أن تكون هناك سلطتان، وحماس لها أن تطرح نفسها كبديل، لكنهم لن يستطيعوا الحصول على موافقة الشعب، لأن السلطة تقول للشعب: نحن نسير فى العملية السلمية ولدينا مجلس تشريعى وهناك مكاسب نأخذها.. لكن يجب أن يعلم الجميع أنه لا أحد يحصل على ١٠٠٪ من مطالبه، وما يحدث الآن هو خذ شبراً ثم فاوض على الشبر التالى.. وهكذا حتى نصل إلى القدس، التى لن تكون - أبداً - كما زعم بيريز العاصمة الأبدية والموحدة لإسرائيل.

ويحين موعد السفير مع الرئيس عرفات، ويحين - أيضاً - موعد انصرافنا حتى نلتقى على العشاء، وأمضى فى طريقى إلى فندق الأمل، ومازال السؤال ماثلاً أمامى: هل تريد إسرائيل سلاماً؟.

نعم تريده، ولكن لنفسها فقط، وهذا لن يتحقق حتى قيام الساعة، وتلك هى المشكلة.

الفصل العاشر

أغنية على المر

** حماس، لا يمكن أن توقف نشاطها
العسكري، لأنها لو أعلنت ذلك
فقدت مصداقيتها بما يعني إئتفاء
مبرر وجودها، حماس، لن تضع السلاح
طالما هناك احتلال.. وطالما هناك مستوطنات..
وطالما هناك القدس والخليل والمعتقلين**

ما زالت أجواء دمياط - مدينة المهجر - تتداخل مع غزة - مدينة المحاصرين - فى تناغم عادى إلى عام ١٩٧٢. كانت حالة الاحرب والاسلم التى تهيم على المنطقة، تتضافر مع حاله اللاجوع واللاشبع التى تخيم على أسر المهجرين فى دمياط ورأس البر. كل شعب مصر كان يريد أن يخرج من تلك الحالة، لكن رغبة شعب بورسعيد فى خوض الحرب كانت شيئاً آخر، فهل كنا نريد النصر أم كنا نريد مجرد العودة إلى بيوتنا فى بورسعيد وبورفؤاد؟ هل كنا نريد إلحاق الهزيمة بإسرائيل وطردها من سيناء، أم كنا نحلم بأن ينال المقاتل المصرى فرصة حقيقية للتعبير عن غضبه؟.

كنت أسير وحدى على كورنيش دمياط مثلما أسير الآن على كورنيش غزة، حين لمحت زحاماً حول عربة حنطور وكاميرا تصوير سينمائي. دفعنى فضولى إلى التسلل وسط الزحام حتى أمسكت الحنطور بيدى. كان يجلس بداخلها الممثل صلاح السعدنى وهو يرتدى زى الجندى المصرى بلونه الكاكى الذى يرتديه خالى العربى وكانت إلى جواره الممثلة هالة فاخر وممثلة أخرى كومبارس لم أهتم بمعرفة اسمها، تجرأت وسألت صلاح السعدنى عن اسم الفيلم الذى يصورونه فقال لى «أغنية على المر». فصاح رجل دمياطى كان يقف خلفى: «هو ده وقت أغانى يا استاذ صلاح.. عايزين نخلص».

و حين لمحت تجاوباً من صلاح السعدنى فى الحديث سألته سؤالاً آخر: وما علاقة الأغانى بلبس الجيش الذى ترتديه؟. ويبدو أن السؤال أعجبه فشدى من يدى كى اجلس إلى جواره فى العربة الحنطور وأعطانى ساندوتش فول فرحت به كثيراً، ليس لأننى كنت نجوعاً، ولكن لانه خصنى به دوناً عن الجمع الذى يحيط بموقع التصوير. سألتنى صلاح السعدنى: «أنت فى سنة إيه؟».

- فى ثانية إعدادى

- كويس جداً.. هل سمعت عن ممر متلا؟

- نعم.. انه أحد الممرات الثلاثة فى قلب سيناء كما حكى لى خالى.

- جميل أوى، نحن فى هذا الفيلم نمثل مجموعة من جنود مصر فى ٦٧ يقودهم الشاويش محمود مرسى، رفضوا أن يتخلوا عن حراسة هذا الممر حتى يعطوا الفرصة لزملائهم فى الانسحاب دون أن تلحق بهم قوات العدو لتدمرهم. وظللنا نتساقط واحداً وراء الآخر حتى سقط الممر ولكن على جثثنا.. وبعد أن نجا زملاؤنا.

- تقصد حضرتك بعد أن انسحب زملاءكم

- انت باين عليك غلباوى، عموماً عندما تشاهد الفيلم ستعرف أن الجندى المصرى لم يحارب فى ٦٧ حتى نقول أنه انهزم، الجندى المصرى لم يمنحه قاده فرصة للتعبير عن ذاته، وهذا الفيلم يؤكد أن النكسة كان بها بعض البطولات التى يجب أن تسجل.

- اعذرنى يا أستاذ صلاح.. سأنشر هذا الحوار فى مجلة المدرسة.. ولكنك نسيت أن تقول لى شيئين: الاول ما هى الأغنية التى كنتم ترددونها على الممر.. والثانى ما علاقة التصوير فى دمياط بالحرب والانسحاب من سيناء؟

- واضح انك ستصبح صحفياً كبيراً مثل أخى محمود السعدنى.. هل سمعت عنه؟

- طبعاً.. أنا أقرأ له.. أو كنت أقرأ له فى مجلة صباح الخير لكنه لم يعد يكتب.

- انه يعيش خارج مصر، وله ابن مثلك اسمه أكرم يعيش الصحافة أيضاً، والآن

■ لا سلام ولا كلام ■

أعود إلى سؤالك، فمن بين الابطال المشاركين معى فى الفيلم الفنان أحمد مرعى. إنه جندى فنان يجيد الكتابة والتلحين، كتب لنا أغنية كنا نردها ليزداد تشبثنا بالممر تقول كلاماً جميلاً ينتهى بعبارة: «أنزف.. أموت وتعيشى يا ضحكة مصر». وهذه العبارة تلخص الفيلم، والآن توكل على الله لأن الاستاذ على عبد الخالق المخرج يشير ببدء التصوير.

- وحكاية دمياط؟

- ياسيدى أنا جندى دمياطى اسمه مسعد أبو المعاطى، والمفروض أن اجازتى انتهت وأنا متوجه الآن مع أمى وخطيبتى إلى محطة السكة الحديد قبل حرب ٦٧ بأيام.

ما حدث من أبطال أغنية على الممر لا يختلف كثيراً عما حدث هنا فى مخيم «جباليا» داخل قطاع غزة الذى سأكون فى أحضانه بعد قليل، فهناك يسكن عماد الفالوجى الشاب «الحماسى» الذى دخل انتخابات المجلس التشريعى الفلسطينى على قائمة منظمة التحرير الفلسطينية ونجح، هو الآن - على الورق - لا ينتمى لحماس التى قاطعت الإنتخابات، لكن كل الفلسطينيين هنا يؤكدون أنه أحد أهم أذرع وعقول حماس فى غزة.. وربما لجأ إلى منظمة التحرير كخطوة تكتيكية كالتى فعلها الجيش المصرى بانسحابه فى ٦٧.

على كل حال لابد أن ألتقى مع هذا الشاب الذى يحرس «الممر» ما بين حماس والمنظمة، ولابد أن أتصل بالشاب ماجد حتى يحملنى بسيارته إلى جباليا.

- عندما قلت لماجد عن وجهتى سألتنى على الفور: هل تقابل الفالوجى؟

- كيف عرفت؟

- إنه علامة مميزة من علامات جباليا.. وهو لغز كبير أيضاً، وانت صحفى ولا بد أن مهمتك لن تكتمل إلا به.

- حدثنى - يا ماجد - عن جباليا وناس جباليا.

- لن تكفى المسافة لكى أقول لك كل شئ، ولكننى أستطيع أن أقول لك أن ما حدث من أطفال وشباب ورجال ونساء جباليا هو الذى جعل إسرائيل تعجل بالبحث عن مخرج لها من غزة. كانوا يصطادون العساكر اليهود من فوق أسطح المنازل دون أن تطالهم يد الجنود، وكانوا يضعون المتاريس بين شوارع جباليا الضيقة حتى لا يتمكن الإسرائيليون من الصعود إليهم فوق الأسطح، لقد خسرت إسرائيل كثيراً فى مخيم جباليا لدرجة أن وزير المالية الإسرائيلى قال منذ ثلاثة أيام فى التليفزيون الإسرائيلى رداً على من يطالبون بإلغاء اتفاقية أوسلو: هل تريدون العودة مرة أخرى إلى أسطح جباليا؟ لا يمكن أن يحدث ذلك.

هذه هى جباليا، شوارعها معتمه ليس بها عمود إنارة واحد.. أليست مخيماً للفدائيين، لم يكن ماجد يعرف أين منزل عماد الفالوجى فسأل طفلاً صغيراً على أول الشارع فدلّه على الفور وهو يستنكر كيف لا يعرف هذا الفلسطينى منزل عماد؟!

منزل فلسطينى متواضع، لكنه فى غاية النظافة والنظام، استقبلنى عماد فى غرفة كبيرة تضم عدداً من المقاعد الدافئة التى تؤكد أنها لا تخلو عادة من الجالسين.

لسبب لم أعرفه، لم يشعرنى استقباله لى بأننى ضيف مرغوب فيه، وربما كان يفضل الاستمرار فى جلسته مع هؤلاء الشباب التى قطعتها بوصولى، ورغم أن اللحية والشارب والنظارة الطبية تعطى الانسان عمراً أكبر من عمره، إلا اننى قدرت أن عماد دون الخامسة والثلاثين.. وأن هذا التجهم على وجهه ربما يكون

مصطنعاً كي أعطيه عمراً أكبر من عمره، على كل الأحوال السنة هنا تساوى عشراً والكل هنا ما بين شاب أو كهل، فهذه الأرض لاتعرف معنى الطفولة!.

كان يجب على أن أتحسس مدخلى إلى هذا الشاب حتى أسبر غوره واكشف مكوناته فقلت له: جلست مع كثيرين قبلك وربما تكون آخر من أستمع اليه فى غزة. كل من سبقوك أكدوا لى الفكرة التى أستنتجتها بنفسى، وهى أن الحكم الذاتى مجرد أكذوبة وأن غزة مازالت تحت الاحتلال، وأن أعلام فلسطين المرفوعة ليست سوى لعبة ضحككت علينا إسرائيل بها، لم أتحدث مع أحد المنتمين لحماس فأنت الوحيد منهم خارج السجن. ومن غير الطبيعى أن أغادر غزة دون أن أعرف منك كيف ترى الصورة حاضراً ومستقبلاً؟.

فقال المهندس عماد الفالوجى: أرجو أن تسمح لى أولاً بأن أقول أننى هنا لا أتحدث باسم حماس كحركة ولكنى أتحدث باسم حماس كفكرة داعية إلى قيام دولتنا المستقلة ذات السيادة وعاصمتها القدس، أما عن الصورة فهى أن الاخ عرفات اجتهد فى تحقيق السلام، وقبل بأن يغامر هذه المغامرة، ومنذ البداية توقعنا أنه لن ينجح بمغامرته فى تحقيق الحلم الفلسطينى، لكنه هو الذى أصر على أن هذه هى بداية تحقيق الحلم بتكوين الدولة الفلسطينية، وساق تبريراته المعهودة التى يكررها فى كل مرة. نحن كنا ندرك أن هم إسرائيل الوحيد هو الأمن.. والأمن فقط. ولو استطاعت أن تحقق هذا الامن بدون السلام لفعلت لكن قدر الله أن السلام كان الطريق لتحقيق الأمن المرجو لها، إسرائيل تريد تحقيق الأمن الداخلى فقط ولكن كيف؟ بتحبيد منظمة التحرير الفلسطينية، أكبر فصيل فلسطينى من خلال اوسلو التى لاتقل خطورة عن كامب ديفيد يوم نجحت إسرائيل فى تحييد مصر وإخراجها من الصراع العربى الإسرائيلى.. وهذه كانت خسارة عظمى،

■ لا سلام ولا كلام ■

وظنت إسرائيل أن اتفاقاً بهذا الشكل سوف يحقق الأمن الإسرائيلي. لكن حماس حاولت أن توصل رسالة بأن هذه الاتفاقية لن تعطى لإسرائيل هدفها. وخلال اتفاق غزة وأريحا كانت المعارضة الفلسطينية تتمتع بوضع قوى ولكن بعد دخول السلطة الضفة الغربية كانت خطوة ايجابية لصالح عرفات. لقد كنا نراهن في السابق بأن إسرائيل لن تغامر بالسماح لعرفات بالدخول للضفة الغربية لكنها غامرت وامتد حكم السلطة إلى الضفة، واقترب الفلسطينى من القدس لكن إسرائيل كان لها حسابات أخرى، فهي لا تريد للسلام أن ينتهى بدولة فلسطينية مستقلة، فقامت بخطوات استفزازية للمفاوض الفلسطينى وجعلته فى حرج امام شعبه، الخليل مثلاً أصبحت شماعه لدرجة أن رئيس دولة إسرائيل صرح بأن الخليل أقدس عندهم من القدس، ووضع الخليل أعقد من القدس، ثم بعد ذلك وضع بيت لحم وقبة رحيل وتوسيع المستوطنة هناك. إذن إسرائيل حريصة على إشغال الفلسطينى ووضعها دائماً فى أزمة ولا تريد أن ترى الفلسطينين جميعاً على اتفاق، فقامت بقتل عياش.. أشهر القيادات العسكرية لحماس، وبظيعة الحال لا يمكن لحماس أن تصمت إزاء ذلك. وبالفعل تناسى الجميع بيت لحم وصار الحديث هو كيف نخرج من الأزمة التى سببتها حماس، وأصبح أكبر إنجاز هو الخروج من الأزمة، واستمر الاستفزاز المتبادل بين إسرائيل وحماس فارتبك الوضع العام. الآن إسرائيل جندت الرأى العام لصالحها كصاحبة المبادرات السلمية وكضحية للإرهاب، وقام العالم بترتيب مؤتمر دولى لمساندتها فى شرم الشيخ، هذا هو الشكل الظاهرى للوضع لكن المسألة أعقد من ذلك بكثير، لأن هناك قوى أخرى دخلت فى اللعبة. هناك قوى لم يرق لها أن ترى عرفات يصل إلى الضفة الغربية، وهناك قوى لم يرق لها أن ترى عملية السلام تمر بهدوء، وهناك قوى لا يروق لها أن ترى عرفات يتفق مع حماس وفى خضم هذا المحيط

يصير الوضع الفلسطيني حرجاً.

- بعيداً عن هذا المؤتمر الدولي. أريد أن أعرف منك ماذا تسمى ما تقوم به حماس.. إرهاب أم جهاد؟

يقول عماد الفالوجي: هنا تختلف المسميات. في المنظور الإسرائيلي هو إرهاب، وفي المنظور الحقيقي إسرائيلي تتحمل مسئولية كبيرة عن العنف والعنف المتبادل. لقد حضرت اتفاق القاهرة بين حماس والسلطة الفلسطينية، وهناك تعهدت حماس ألا تقوم بأى عمل من شأنه إخراج السلطة الفلسطينية، وهذا يعنى - من طرف خفى - وقف العمل العسكرى، لكن حماس لا يمكن أن توقف العمل العسكرى لأنها لو أعلنت ذلك فقدت مصداقيتها بما يعنى انتفاء مبرر وجودها، حماس لن تضع السلاح طالما أن هناك احتلال وطالما أن هناك مستوطنات وطالما أن هناك القدس والخليل والمعتقلين. باختصار حماس لا تستطيع إيقاف نشاطها العسكرى لتبدأ نشاطاً سياسياً. ومن هنا صيغ اتفاق القاهرة بحرفية شديدة لكى يحفظ لحماس ماء وجهها، كان هذا مفهوم كل المحللين، وفعلاً هدأت حماس لمدة سبعة شهور دون عمل عسكرى واحد، ولأول مرة يمر شهر رمضان على هذا البلد بهدوء، لقد كانت إسرائيل تستعد لهذا الشهر قبله بأشهر، لكنه مر بسلام فى إشارة واضحة أن حماس احترمت وعدها. لكن مقتل عياش قضى على هذه الهدنة، فنقضت حماس الاتفاق. نعم السلطة ليس لها دخل فى مقتل عياش، لكن الاتفاق مع السلطة يخدم إسرائيل، لأن هناك قاعدة معروفة: هناك أمن فلسطينى.. هناك اتفاق فلسطينى فلسطينى، يساوى أمن إسرائيل.

وأنا أرى أن إسرائيل هى التى تقرر ماذا تريد وليس حماس. فهل تريد إسرائيل السلام أم العنف؟ حماس قبلت بالسلام وقبلت بمعاهدة، لكن إسرائيل هى التى

■ لا سلام ولا كلام ■

لا تريد إعطاءنا شرق القدس وفك المستوطنات والإفراج عن المعتقلين لتقوم دولة مستقلة فلسطينية باستفتاء شعبي، هذه المبادرة طرحتها حماس في ١٩٩٣. هذا يعني أن حماس تستطيع الاستجابة للمتطلبات الأمنية الإسرائيلية، لكن ما يحدث الآن أن حماس تسمى ما حدث مع إسرائيل هدنة.. وعرفات يسميها سلاماً.

لكن الواقع يؤكد أنها ليست معاهدة سلام على الإطلاق. فكما قلت لك أن هدف إسرائيل الأول والأخير هو الأمن، لقد كانت هناك فرصة تاريخية لإسرائيل لإحلال السلام، لأن هذه هي أول مرة في تاريخ القضية الفلسطينية تتفق منظمة التحرير وأغلب الفصائل الفلسطينية الأخرى وبالذات الحركة الإسلامية، الكل كان مستعداً للاعتراف بإسرائيل كواقع بشرط أن تعترف إسرائيل بحقنا في القدس، على مر التاريخ لم يكن هذا الموقف موجوداً وأنا أقول إذا لم تستغل إسرائيل هذه الفرصة فقد لا تتكرر، ياسر عرفات قادر على ضبط العلاقة مع حماس لتحقيق الأمن الإسرائيلي، خاصة وأن حماس وافقت على أن تفاوض إسرائيل عبر السلطة الفلسطينية بشرط نجاح السلطة في تطبيق شروط حماس، إننا لا يمكننا القبول بأن تأخذ إسرائيل الأمن والاستقرار والأرض، مستحيل أن يحدث ذلك.

قلت للمهندس عماد: وهل تقاعست السلطة الوطنية عن تنفيذ شروط حماس؟

فقال: السلطة تحاول، ولكن إسرائيل هي التي ترفض إعطاء عرفات القوة اللازمة. المشكلة أن المفاوضات الفلسطينية يحاول أن يقنع إسرائيل بحقوق الشعب الفلسطيني لكنها تماطل فيما يتعلق بالمستوطنات، الخليل، القدس، بيت لحم، المعتقلين، الحدود، السيطرة، السيادة، والعودة. كل هذه القضايا لا يريدون حلها

والنتيجة أن عملية السلام فقدت مصداقيتها.

- شيخ عماد.. قال لى العميد غازى الجبالى أن حماس صنيعة إسرائيل، وكل ما معها من سلاح هو هدية من إسرائيل لضرب منظمة التحرير الفلسطينية، الكلام الذى ينفى ذلك يؤكد من ناحية أخرى أن إيران هى التى تمد «حماس» بالسلاح والمال. إذن حماس تنفذ سياسة قادمة من خارج الوطن، فما هى حقيقة حماس خاصة وأن كلامك الآن عن مبدأ التفاوض مع إسرائيل من خلال السلطة يتعارض مع ما سمعته بالأمس من الدكتور حيدر عبد الشافى الذى يؤكد أن حماس لا تعترف أصلاً بوجود إسرائيل.

يقول عماد: القول بأن حماس صنيعة إسرائيل فيه من المغالطة الكثير، فكلنا يعلم أن حماس ولدت من رحم الانتفاضة، وبالتالى لا يستطيع أحد أن يدعى غير ذلك. وحماس هى امتداد لجماعة الإخوان المسلمين التى كانت موجودة عندنا منذ سنوات فى قطاع غزة، وفى الانتفاضة ولدت لكى تكون شكلاً يلائم ظروف الانتفاضة، الإخوان المسلمون تنظيم اجتماعى سياسى تربوى أخلاقى، لكن الانتفاضة أوجدت مرحلة جديدة وهى النضال، فكانت حركة حماس، والمعروف عن إسرائيل بعداؤها اللامتناهى للإسلام لا يمكن أن تحتضن حماس. ثم أن حماس ليست تنظيمياً محلياً فقط، بل له جذوره وامتداداته فى الخارج، وله مواقع فى الاردن وسوريا ولبنان وأوروبا وأمريكا. أما عن تمويل حماس فهو تمويل داخلى عبر التبرعات من المؤسسات الإسلامية المختلفة، والزج باسم إيران هنا هو من قبيل الموضة، حيث أصبحت تهمة لمن لاتهمه له، إيران كما تعلم عندما نشأت اختلفت مع الإخوان المسلمين، وكلنا يعلم موقف الإخوان من الشيعة، أشد الناس كرها لإيران هم الإخوان المسلمون. ولكن فى الفترة الأخيرة وبعد «مرج الزهور»

تحسنت العلاقة بين إيران وحماس، لقد كنت المسئول الأول عن حماس فى عام ١٩٩١ فى الضفة والقطاع، فى تلك الفترة كانت علاقتنا مع إيران سيئة جداً، ولكن فى ١٩٩٣ صارت لنا صلات مع حزب الله فى لبنان، وبدأ نوع من الدعم السياسى، ولم تخرج العلاقة عن ذلك، لقد التقينا مع العراق ومع سوريا ومع مصر ومع السعودية والتقينا مع الملك فهد. قد يكون الخط السياسى الحالى لحماس يلتقى مع إيران ولذلك علت الأصوات تؤكد أن إيران هى التى تمول حماس، ولكن هذا غير صحيح.

- أخ عماد.. على ذكر حزب الله، أنت تعلم أنهم يقتلون عددا من اليهود يوميا، ومع ذلك لم تنتفض إسرائيل هناك مثل انتفاضتها هنا، مما يؤكد أن ما يحدث هو مجرد ذريعة للتراجع عن اتفاقية الحكم الذاتى أو القضاء نهائيا على حماس.

ورد على الفالوجى بقوله: إسرائيل تدرك تماماً بأنها لن تستطيع التأثير على حركة حماس، فمنذ الانتفاضة ونحن هنا وفى الضفة الغربية، أيامها كانت إسرائيل موجودة هنا وجودا مباشرا، وحاولت إسرائيل طويلاً عن طريق الاعتقالات أن تضرب حماس، لكنها فشلت. إسرائيل ضربتنا عشر ضربات، فكانت تقتل فى كل مرة ما يزيد عن ٢٠٠٠ عنصر. لكن كانت تخرج حماس بعد كل ضربة بقوة أكبر، كان شعارنا الضرب الذى لا يفنينا يزيدنا قوة، وهذا تعلمه إسرائيل جيداً، فالقضاء على حماس هو ضرب من ضروب المستحيل، لأن حماس ليست تنظيمياً بسيطاً أو جهازاً، حماس تنظيم جماهيرى معقد له قاعدة ليست هينة، وهو الفصيل الثانى الرئيسى فى الساحة الفلسطينية، وهو فصيل منافس حقيقى لفتح ولتنظمة التحرير.

وفى أى انتخابات ستأكد أن المنافسة شديدة، لذلك لا يوجد حل لحماس إلا

بالحوار معها وهذا ماتدركه إسرائيل. لهذا كان الحوار مع حماس مطلباً من الجميع. إسرائيل نفسها كانت تطلب من عرفات أن يحتوى حماس دبراً للعنف.

شيخ عماد.. لو استحكم الطوق الأمنى أكثر من ذلك فهل تستبعد أن يصبح مناد فى الشعب الفلسطينى من جديد قائلاً: حى على الجهاد.

يقول عماد الفالوجى: والله لكل فعل رد فعل. ولكن إسرائيل أذكى من ذلك بكثير. لأنها لاتضغط لدرجة الانفجار، وإسرائيل أكثر الاطراف علماً بالنفسية الفلسطينية أكثر من السلطة الفلسطينية ذاتها، فإسرائيل لها خبرة طويلة مع الفلسطينيين وتعاملهم بخبرة العالم المطلع على كل ما يدور، لذلك لا أعتقد أن إسرائيل سترتكب هذا الخطأ القاتل، ما يحدث هو خطوات انتقامية منهم لإرضاء لشعبهم ثم فى النهاية يخفف الطوق ثم يرفع.

- شيخ عماد اريد أن أعلم منك حكم الدين فى صبى يلف خصره بحزام ديناميت ويفجر نفسه فى عدد من الإسرائيليين، هل هذا استشهاد أم انتحار؟.

يقول الشيخ عماد: للأسف لست عليماً بشئون الفقه حتى أفتيك فى هذه المسألة الخلافية، وعندكم علماء فى مصر يستطيعون الإجابة، لكنهم للأسف غير معنيين بالأمر، رغم أن فداحة هذا الأمر تقتضى اجتماع عدد كبير من علماء المسلمين ليخرجوا لنا بفتوى: هل هذا العمل ينال أجر الشهادة أم لا.. خاصة وأن العمليات الانتحارية لم تعد مرتبطة بفلسطين فقط.. بل هناك فى جنوب لبنان وفى الجزائر أيضاً، وأنا لم أسأل الشيخ أحمد ياسين «مؤسس حماس» فى ذلك لأنه عندما اعتقل لم تكن العمليات الانتحارية قد بدأت.

- أخ عماد انت تجمع بين نقيضين يحتاجان إلى تفسير، فقد دخلت المجلس التشريعى على قائمة فتح، وتحدث داخل المجلس متبنياً فكر حماس، أليس هذا

التفافاً وتناقضاً؟.

يجيب الشيخ عماد الفالوجي: أنا لم أدخل ضمن قائمة فتح ولكن دخلت كإسلامي مستقل ضمن ائتلاف وطني، نحن في دائرة الشمال، وكان المطلوب انتخاب سبعة، فصار نقاش حول تقديم قائمة ائتلافية تضم مرشحين من فتح وإسلاميين ومستقلين. وقد لاحظ الناس أن أغلب القائمة من فتح فوضعوني ضمن فتح، وخضنا الانتخابات بهذا الشكل ووصلنا للمجلس لأثبت للجميع أن فلسطين لن تنجح إلا بالائتلاف بين فتح وحماس والجبهة الشعبية والمستقلين، هذه التركيبة إذا استطعنا أن نصنعها ستحظى بدعم الشعب، والدليل نجاحنا في الانتخابات.

- ولكن يا أخى هل تعتقد أن هذا المجلس التشريعي يمكن أن يقوم بدور في ظل احتلال إسرائيلي غير مباشر؟.

يجيب الشيخ عماد: أتمنى أن يقوم بدور، ولكن هذا المجلس سيعتني أكثر بالأمور الداخلية الفلسطينية وسنعتبر أنفسنا لمجئنا إذا استطعنا أن نجعل فيه لجنة للحوار الفلسطيني لتقوم بدور هام في المرحلة القادمة.

- ولكن أمامكم قضية أهم من هذا الحوار وهي شباب الانتفاضة العاطل بلا عمل، و ٣٠ ألف عامل فلسطيني كانوا يعملون في إسرائيل. كيف يمكن أن يسهم المجلس في حل هذه المشكلة؟.

يقول الشيخ عماد: هي معضلة في الواقع، لأن قطاع غزة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإسرائيل. كل الأيدي العاملة هنا تعمل هناك. لذلك ليس من السهولة أن نستغني عن المصانع الإسرائيلية التي تستوعب الآلاف من عمالنا، وفي نفس الوقت نحن لانريد أن نكون أسرى لتلك المصانع الإسرائيلية، على هذا التناقض الرهيب نحن

نعمل الآن لتوفير عمل ملائم لعمالنا داخل قطاع غزة وهذا يتطلب سنوات، لذلك نحن توجهنا الآن للصناعة الداخلية، واستثمار رأس المال الفلسطيني في الخارج ليستثمر في الداخل من أجل بناء مؤسسات ضخمة تستوعب عدداً كبيراً من العمال ومع ذلك لن نستغنى عن العمل في إسرائيل.

- أخشى أن أقول انك تحلم، فكيف يمكن لصاحب رأس المال أن يستثمر ماله هنا في ظل تلك الظروف المحبطة، ألا تعلم أن رأس المال جبان؟ .

يقول الشيخ عماد: أعلم.. ولا أحلم.. فلو قمنا بتشريع قوانين في المجلس تحمي رأس المال فلن تكون هناك مشكلة، سواء أكان صاحب هذا المال فلسطينياً أم عربياً، أنا لا أعود كثيراً على الدول المانحة لكي تبني لنا مصانع في الضفة والقطاع، أنا أريد أموالاً عربية حتى توقف نزيف الإحباط الذي جعل عدداً كبيراً من شباب فلسطين يفكرون في العودة إلى المنفى، وأخشى أن أقول - حسب تعبيرك - أن هناك مخطط لتفريغ مناطق الحكم الذاتي من شباب فلسطين، هل تعلم أن الولايات المتحدة التي كانت تمنع تأشيرات للفلسطينيين للسفر إلى أمريكا أصبحت هي التي تسعى وتمنحها بمنتهى السهولة! ماذا تسمى هذا؟ أليس مخططاً؟ لذلك أنا أصبح بأعلى صوتي.. يا شباب فلسطين تشبثوا بالأرض واصبروا وصابروا لأنها لن تصبح جنة بالكلام، بل بالعمل، ولن يقدر على العمل إلا سواعدكم. أرجوكم تعالوا نبني وطننا وتأكدوا أن قوى العالم لن تستطيع - بعد الآن - إخراجنا منه.

الفصل الحادى عشر

قرية الخونة

**بمجرد أن قال: سلام عليكم، أضاءت
اللمبة الحمراء فى الطائرة الإسرائيلية، فضغط
الطيار على زر التفجير، تفجر اللغم البسيط
فى مخ عياش.. وكان كل شئ معدا لهروب
الخائن بفعلة الشنعاء**

أدرك الآن - والآن فقط - أنني هش، مثل قطعة صلصال يابسة، أو بالأحرى مثل عملية السلام في منطقة الشرق الأوسط. فالذي يتحدث عن المحن التي مرت به وفي حلقة مراراتها.. بعد ربع قرن.. هو في غاية الهشاشة. نعم.. الآن أدركت أن زجاج مدرستي المدهون بالأزرق كان أقوى مني لأنه صمد أمام هدير مدافع الهاون والهاوزر، وأزيز الطائرات الفانتوم وسكاي هوك. زجاج مدرستي مثل هؤلاء الناس الذين أتجول بينهم الآن، يعتبرون معاناتهم أمراً سريدياً عليهم التعايش معه، من يلقي ربه منهم يحتفل اهله باستشهاده. ومن ظلت تجرى في عروقه دماء الحياة.. يفكر في وسيلة يعيش بها حياته بلا انكسار..

هل خلق هؤلاء الناس من نفس «الطينة» التي خلقنا منها؟ أعلم أن الإجابة نعم، ولكن لماذا هم لا يشكون أو يتبرمون أو يتاجرون بمعاناتهم ويطلبون الثمن؟. أى قدرة تلك التي تجعلهم يقفون في طابور للخبز طوله كيلومتر وعندما يحين دورهم يكون الخبز قد نفذ، فلا يكون ولا يسبون البائع ولا يلعنون عرفات ولا حماس ولا كل من تسبب في هذا الطابور!.

أعطاني عماد الفالوجي بهدوئه - الذي اتهمته بالاصطناع - درساً في النضال أزعج أنني لن أنساه، قبل أن أجلس إليه كنت أظن أن النضال حالة طارئة فريدة ينبغي أن نتفرغ لها وحدها ونوقف من أجلها كل تروس الحياة الأخرى، لا يهم أن نأكل أو نشرب أو نضاجع النساء. عيب أن نغنى أو نذهب للسينما أو نتحدث عن الجنس. جريمة لا تغتفر لو ضحكنا. ولهذا نضالنا قصير العمر، لا يلبث أن يأفل لنبدأ نحن في استرجاع أيامه ولياليه ومعاناته، ونتصور أننا أبلينا بلاء أحسن من بلاء غاندى لتحرير بلاده.

في غزة وبیت لحم ورام الله، في نابلس وطولكرم والخليل، في كل أرض فلسطينية تتحدث بالعربية نضال أبدي، لا يعرف النظر في ساعات اليد لاستعجال النهاية، ولا قراءة نتائج الحائط لحساب ما مضى وما تبقى. ولا الكتابة بالطباشير

على الجدران كما يفعل السجناء الذين أعتهم فترة العقوبة. النضال هنا هو كرات الدم الحمراء وبلازما الحياة. بدايته لحظة ميلاد الطفل الفلسطيني. ونهايته عندما يلفون جثمانه بعلم فلسطين ليواروه التراب. ليس حالة طارئة يوقفون عليها سنوات العمر، إنهم يأكلون ويشربون ويضحكون ويلاعبون نساءهم وينجبون كثيراً، إنهم يقرأون جيداً ويفكرون بامتياز، ولا يحلمون بتحرير الأرض، ولكن بأن يعطيهم الله القدرة على تحرير الأرض، ولهذا لم يتشنج عماد وهو يحدثني عن مقتل يحيى عياش، ولم يذرف الدمع وهو يخلص في نهاية حديثه معي إلى أن إسرائيل لا تريد السلام، ولم يبك على اللبن المسكوب حين قال: لقد حذرنا عرفات من البداية.

أجمل ما في نضالكم يا صديقي.. يا شقيقي.. يا أخي، انه نضال هادئ يعرف هدفه ولا يرضى بالفتات، وأروع ما في تفكيركم أنكم تحفظون إسرائيل عن ظهر قلب، تتباون بخطواتها القادمة وتعرفون إلى أين تنتهي. عذراً لم تعلمنا كتبنا المدرسية شيئاً من هذا، ولم تنقل لنا نشرات الأخبار أي عنوان من عناوينكم الحقيقية، ولم تضع التحليلات - وما أكثرها - أيدينا على معنى وجودكم هنا.

لا بد أن يزوركم كل عربي ليعرف بنفسه، ودون أن تقصوا عليه شيئاً، أن الدماء الفلسطينية ليست كلون دماناً، وأن الحياة الفلسطينية «أجمل» من حياتنا، وأن الغد الفلسطيني يحمل بشرى لا يحملها الغد العربي الآخر؟.

إيه يا شوارع غزة ويا جدرانها البيضاء المزدانة بالدم، الدم الذي كتبوا به على الحيطان برنامج عمل شهداء الغد.. كتائب عز الدين القسام، لم يكتبوا: تسقط إسرائيل وتعيش فلسطين، بل كتبوا: غدا يتحدث العالم عما فعله شباب فلسطين. الكتابة ليست قديمة، ولكنها متجددة كتجدد الدم في الشرايين، وكأنهم يعوضون أنفسهم عن عدم وصول الصحف اليهم فكتبوا مقالات موجزة تاركين نشرات

■ لا سلام ولا كلام ■

أخبار العالم لتحكى التفاصيل فيما بعد.

أربعة أيام قضيتها فى غزة، والآن ها هو ماجد ينبهنى ببوق سيارته إلى موعد المغادرة إلى القدس. وبقدر سعادتى بأننى سأصلى فى المسجد الاقصى وقبة الصخرة، وبأننى سأعرج على كنيسة القيامة. بقدر حزنى لأننى سأتركهم فى حصارهم وأمر من حاجز أريز الرهيب. لمجرد أننى أحمل بطاقة صحفية إسرائيلية سأعبر - دونهم - من الحصار. ..يا للعار.

كان ماجد صامتاً لا يريد أن يتكلم لدرجة أنه لم يرد على سلامى. ولم يتحرك بالسيارة إلا عندما هزته فتبسم وقال: عفوا لم أنتبه لكما.. كنت شارداً.

- قلت له: أنت حزين ولست شارداً

- فقال: نعم والله أنا حزين

- إذن لن نذهب إلى القدس إلا إذا ذهبت عنك سحابة الحزن.

- اطمئن.. ستذهب، انها مثل الصداق الذى يفاجئ الشخص فيصده بحبة أسبرين.

- هل يمكن أن أعرف سبب حزنك.. إلا إذا كان شيئاً خاصاً لا يجب أن تبوح به.

- والله يا أخ عاطف هو شئ خاص إذا نظرت له من منظور أننى فلسطينى وأنت مصرى، ولكنه هم عام إذا نظرت له من المنظور العربى، إنه شئ مخجل؟!

- يبدو أنك بارع فى الفوازير يا ماجد، أرجوك قل لى ما هى الحكاية.

- لقد ضُبط عميل جديد لليهود اليوم، كنا نظن طوال الفترة الماضية بأنه رجل وطنى طيب، لكن للأسف لابد أن يكون بجوار المكان النظيف - دائماً - صفيحة زبالة.

- عميل..؟ صفيحة زبالة..؟ أنا لا أفهم شيئاً على الاطلاق.

- انا لا أريد أن تكون هذه القصة آخر ما تسمعه فى غزة، أعلم أنك مشحون

■ لا سلام ولا كلام ■

- وتقف معنا وتعتقد أن كل ناس غزة بلا استثناء من فصيلة واحدة.
- لا يا صديقي.. فنحن لا نعيش فى الجنة.. إننا هنا على الارض، والمجتمع الفلسطينى - كأى مجتمع - لابد أن يشذ عن قاعدته نفر قليل يؤكدون القاعدة ولا يزعزعونها فقل لى ما هى الحكاية؟.
- لأننا فى حرب مع إسرائيل اقرب إلى حرب العصابات التى لا يمكن التنبؤ بتوقيت هجماتها فقد حرص اليهود على زرع عملاء لهم بيننا، أنا لا أتحدث عن اليهود المستعربين فهؤلاء خطرهم قليل إذا ما قيس بالعملاء الذين هم من أهلنا، ويعيشون معنا، ويطلقون على أسرارنا ثم يقدمونها على طبق من ذهب لليهود، إنهم البقعة السوداء الوحيدة فى الثوب الفلسطينى، يبيعون ضمائرهم ووطنهم من أجل ماذا؟ المال.. تصورا.
- وماذا فعلتم بالعمل الذى ضبط مؤخرًا؟.
- لاشئ.. لقد هرب إلى قرية الخونة.
- قرية الخونة؟! إننى أسمع أخباراً جديدة تماماً.. هل يوجد شئ اسمه قرية الخونة؟
- نعم ومنصوص عليها فى ملاحق الإتفاقية مع إسرائيل، إنها قرية تنتمى إلى قطاع غزة وتحرسها كتيبة إسرائيلية، حيث تعيش فيها ٤٠٠ عائلة من العملاء - فلسطينيون؟.
- كانوا كذلك قبل أن ينكشفوا.. الآن هم يهود.. بل لادين لهم.
- وهل هؤلاء هم الذين كانوا ينقلون نحرقات الفدائيين لإسرائيل؟.
- بل ينقلون كل ما يدور فى بيوتنا، لدرجة إن إسرائيل تعرف ماذا يدور بين الرجل وامراته، ألم أقل لك أنهم ٤٠٠ أسرة.. أى أن الزوج والزوجة والأولاد عملاء أيضاً.
- ماجد.. هذا كلام موجه ومفاجئ.

- ألم أقل لك أنكم لاتعرفون عنا إلا القليل.
 - ولكن ماذا يحدث لو سبقت أيديكم يد اليهود وقبضتم على أحدهم؟.
 - قبل الحكم الذاتي كان شباب صقور فتح وحماس ينفذون فيهم حكم الاعدام
 بعد تجريسهم على نطاق ضيق.. فاليهود كانوا هنا بصورة مباشرة.
 - لقد سمعت أن إسرائيل قتلت يحيى عياش بمساعدة هؤلاء العملاء ولكننى
 لم أدقق كثيراً.
 - هذا الشخص الذى تقصده غير موجود الآن بقرية العملاء ولكنه قبض مليون
 دولار من اليهود ويعيش الآن مع أسرته فى تل أبيب.
 - مليون دولار مرة واحدة؟!.
 - نعم لقد كانت إسرائيل تضع ميزانية مليون دولار لمن يأتى لها برأس يحيى
 عياش المفكر العسكرى لحماس ومهندس عملياتها.
 - وكيف تمكن هذا الخائن من عياش؟.
 - كان يمت بصلة قرابة لصديق كان عياش يختفى عنده. وعندما تعطل التليفون
 المحمول الخاص بعياش عرض ذلك الشخص أن يصلحه، أنت تعلم طبعاً أن
 التليفون هو الوسيلة الوحيدة لكى يتصل بها عياش مع أعضاء حركته وأخذ الخائن
 التليفون المحمول إلى تل أبيب وسلمه للمخابرات الإسرائيلية وأخبرهم بمكانه.
 فقاموا بتلغيم التليفون بحيث لاينفجر إلا عندما يتحدث فيه يحيى عياش فقط.
 وفعلاً جاء الرجل بالتليفون إلى عياش، وفى الوقت نفسه كانت طائرة إسرائيلية
 تحلق فوق المكان الذى يوجد به عياش، ولأن الشهيد عياش حذر بطبعه طلب من
 الرجل أن يطلب رقما ويتحدث فى التليفون أولاً فتكلم الرجل ولم يحدث شئ.
 وهنا اطمأن يحيى عياش وطلب رقم والده ليطمئن عليه، وبمجرد أن قال سلام
 عليكم اضاءت اللمبة فى الطائرة الإسرائيلية فضغط الطيار على زر التفجير فتفجر
 اللغم البسيط فى مخ عياش فقط دون أن يصيب من حوله.. ودون أن يصيب

■ لا سلام ولا كلام ■

الجانب الآخر من رأسه، لقد كان لغماً سحرياً، وكان كل شيء معد لهروب الخائن فأفلت بفعلته الشنعاء.

- لم أكن أعرف - يا ماجد - هذه التفاصيل المؤلمة.

- القصص المؤلمة كثيرة، هل تعرف أن الصدفة وحدها كشفت رجلاً كبيراً في السن كنا نذهب اليه ونستشيريه ونطلب نصحه وكان هو - في الحقيقة - عميلاً محترفاً لليهود.

- وكيف كشفتم ستره؟

- كان له إبننا شاباً يعمل في إسرائيل.. مثل آلاف الشباب الفلسطينيين. يذهب إلى هناك صباحاً ويعود في المساء. وكان لهذا الإبن صديق في مثل عمره لا يفارقه. كان الشبه بينهما غريباً حتى ظن الكثيرون انهما توأم، فجأة اصيب والد الشاب الذي يعمل في إسرائيل بالفشل الكلوى وتكاثر عليه أمراض الشيخوخة لدرجة أن ابنه فضل أن يرعاه ولم يعد يذهب إلى عمله، في الوقت نفسه كان الشاب الآخر عاطلاً يبحث عن عمل فأعطاه صديقه الكارنية الخاص به ليعبر من أريز للعمل بدلاً منه في إسرائيل. وقال له لن يكشفك أحد، فالصورة تشبهك طبق الاصل، وفعلاً ذهب الشاب إلى أريز ووقف في طابور العابرين من الشباب الذين يعملون هناك، والذين كانوا يتكلمون معه على أنه صديقه الآخر، ولكن عندما وصل إلى الضابط واطلعوا على الكارنية قالوا له انتظر انت قليلاً، وسقط قلب الشاب في قدمه، لقد ظن أنهم كشفوا أمره وسوف يفسرون الأمر على انه سرق الكارنيه من صاحبه ليمر وينفذ عملاً ارهابياً في اسرائيل، نظر الشاب حوله يفكر في طريقة للهرب فوجد كل الطرق مسدوده.. ولو جرى في اتجاه غزة سوف يمحطه هؤلاء الجنود الإسرائيليين بوابل من الرصاص، وذهبت خضرة الحياة من وجه الشاب وحلت محلها زرقة الموت الذي استعد لمواجهة حيث لا مفر منه.

وطالت ساعات الانتظار حتى بلغت أربع ساعات، جاء بعدها ضابط ليستدعيه

■ لا سلام ولا كلام ■

ويدخله إلى مكتب بعيد كان يجلس فيه ضابط إسرائيلي برتبه عقيدة قال لنا الشاب فيما بعد أن العقيد الإسرائيلي استقبله بترحاب شديد وكأنه يعرفه. ثم سأله فجأة عن أبيه. ولأن الشاب في منتهى الذكاء أدرك أنه يسأل عن والد صديقه فقال له بسرعة انه مريض جداً ولا يستطيع مغادرة الفراش، فرد عليه الضابط: الآن فقط عرفت لماذا كف عن الاتصال بنا، لقد كنا في حاجة إليه هذه الأيام، وهنا تدفقت الحياة في عروق الشاب من جديد وأيقن انه أمام كنز ثمين لو أتقن دوره. وخمن الشاب أن والد صديقه عميل لإسرائيل وأنه لو نجح في اقناع ذلك العقيد الإسرائيلي أنه على علم بذلك سيكتشف الأمر كله. قال الضابط الإسرائيلي: اننا نحدثه مراراً ولكنه لا يرد علينا. فقال الشاب: لا يستطيع لأنه إما في المستشفى أو في سريره بالبيت ويجلس حوله إخوتى الذين لا يعلمون شيئاً عن الموضوع.

وهنا أدرك الكولونيل أن الشاب على علم بما يفعله والده فقال له: لقد أرسلنا له الفلوس وقطعة السلاح وجهاز الإرسال الجديد لكنهم مدفونين في مكانهم ولم يذهب أحد لأخذهم كالمعتاد.. فلماذا لم يرسلك أنت؟.

فقال الشاب بتلقائية: للأسف ابى يريد أن يبعدنى عن هذا الأمر رغم اننى عرضت مساعدته فى مرضه الذى يحتاج علاجه إلى أموال كثيرة.. ولولا خوفى من افتضاح أمره لطلبت منكم أن تعالجوه فى مستشفيات تل أبيب.

فقال الضابط: لا. نحن لا نريد حرقه أننا نحتاجه بشدة وسوف أدلك على المكان الذى ندفن فيه رسائلنا لايبك. ورسم الضابط خريطة للشاب عن مكان فى غزة ثم اعطى له شفرة الاتصال الجديدة، وهنا أيقن الشاب أن صديقه مشارك لوالده وإسرائيل تعلم ذلك وإلا ما اعطته كل هذه المعلومات بسهولة.

- ومثلما تطير الطيور بأرزاقها طار الشاب بالخريطة وبالشفرة الجديدة وذهب بمفرده فى الليل إلى المكان وحفر فيه فوجد قطعه السلاح والجهاز ومظروفاً مليئاً بالشيكلات الإسرائيلية.

وحمل الشاب الرسالة بكاملها وذهب بها إلى مقر السلطة الوطنية الفلسطينية ليتم القبض على الرجل وإبنة بسرعة ليصاب الجميع بصدمة، فأخر شخص كان يمكن أن يتصوره الناس أن ذلك الرجل خائن.

- سألت ماجد: وماذا كان رد فعل الإسرائيليين؟

- فى الحقيقة لا أعرف لأن هذا الامر لا يهم بعد أن فجعنا فى الرجل الذى اعترف بأنه عميل منذ ثلاثين عاماً، تصور.. يستغلنا طوال هذه المدة!.

وها نحن قد وصلنا إلى نفس النقطة التى استقبلنا فيها ماجد منذ أربعة أيام، ولكن شتان ما بين استقباله لنا ووداعه، لقد رفض أن يأخذ ثمن التوصيلة رغم إلحاحنا، وظل يحتضنى لمدة ثلاث دقائق وكأنه لا يريدنى أن أمضى ثم نظر إلى علم فلسطين الذى يرفرف حولنا وقال: عندما تأتى فى المرة القادمة سيكون هذا العلم حقيقياً، يعبر عن دولة مستقلة، لها تأشيرتها المستقلة، وعملتها المستقلة، وجوازات سفرها المستقلة، ولن تحتاج إذا أردت أن تزورنا إلى الذهاب لسفارة إسرائيل، إلى اللقاء يا أخى.

وتخذلنى دموعى مرة أخرى، حاولت أن أمسكها فكدت أجهش، سارعت، الخطى حتى لايلمح الحاج إبراهيم مسلم ضعفى.. ولكننى عندما نظرت إليه وهو يحدثنى بعد قليل اكتشفت من احمرار عينيه أننى أسعد حالاً.

ولم يخرجنا من حالة الشجن التى غرقنا فيها إلا صوت العسكرى الإسرائيلى وهو يوجه تحذيره إلينا بأن نظل بحقيبتينا بعيداً، ورغم أن سلاحه كان فى وضع الاستعداد مثل ملامح وجهه إلا أننا لم نخف من لحظة سهو منه فيضغط على الزناد وينتهى كل شئ، لم تكن شجاعة منى، ولكنه كان زهداً فى الحياة التى تنتظرنى بعد أن اعطيت ظهري لحياة أخرى لها معنى آخر.. فى غزة.

الفصل الثانى عشر

القدس لنا

**الناس فى كل العالم هى
التي تختار عوا صمها
أما القدس فهي التي
تختار ناسها**

■ لا سلام ولا كلام ■

ليس الشباب الفلسطيني وحده يعيش حالة سرمدية من النضال. فهناك دولة قوية.. تمتلك أسلحة نووية، ودعمًا من أقوى دولة في العالم تعيش حالة سرمدية أيضاً، ولكن من الخوف!.

ما هذا الذى يفعله الجندى الإسرائيلى بحقيبتى وحقيبة إبراهيم؟ لم يقنع برأى جهاز الأشعة بأن الحقيبتين خاليتين من الأسلحة والمتفجرات، فهناك أسلحة أخرى - فى رأيهم - لا تكشفها الأشعة، ولهذا ارتدى الجندى قفازات من مادة لا أعرفها - وما كان يلىق أن أسأله - وظل يقلب بيديه داخل الحقيبتين، كل حقيبة استغرقت عشر دقائق من التفتيش، وخلفنا كانت تقف سيارة إسعاف تنبعث من داخلها آهات تمزق القلب، سألت سائقها بنظرات عيني، فكان أشجع منى وتكلم: لابد أن يفتشوا السيارة قطعة قطعة، ٣ ساعات وأنا على هذا الوضع فالشخص المتخصص فى تفتيش السيارات «الفان» غير موجود، أنا عارف انه سيأتى.. ولكن هل ينتظر هذا المريض؟.

كان الجندى الإسرائيلى من اليهود الغربيين فلم يفهم كلمة واحدة من كلمات سائق الإسعاف الذى أضاف: سمحوا اليوم بعبور المرضى الذين يتلقون العلاج فقط. ولكن بهذه الطريقة من الأفضل لهم الموت فى غزة بين اولادهم!.

جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد تمت أمام عيني وعين زميلى المصور، وبالطبع أمام عيني سائق الاسعاف، لكن ثلاثتنا عجزوا عن فعل أى شئ لانقاذ ذلك الذى يتأوه ألماً داخل سيارة الإسعاف، لعنة الله على الظالمين.

ليتهم احتجزونى وأفرجوا عن سيارة الأسعاف. لكنهم - للأسف - أفرجوا عنى وعن زميلى، وأصبحنا الآن فى الناحية الإسرائيلية من أريز تأهباً للذهاب الى القدس.

وبسبب إجراءات الأمن والتفتيش الإسرائيلية نسيت أن أتصل بالسائق

■ لا سلام ولا كلام ■

«موفق»، فماذا نفعل الآن؟ ليس أمامنا إلا انتظار أى تاكسى يأتى إلى هنا ليوصل أحد السائقين أو أحد الصحفيين، ولكن ربما يطول انتظارنا لساعات.

جلست فوق حقييتى.. وكذلك فعل إبراهيم، تأملت الصمت المحيط بالمكان، وتمنيت فى كل لحظة أن تقطع هذا الصمت سرينة سيارة الاسعاف بعد أن يفرجوا عنها. ولكن ها هى ساعة قد مرت ونحن على حالنا، ولانعرف أبقي المريض على حاله أم صعدت روحه إلى السماء؟.

جاءت سيارة ميني باص فارغة ووقفت غير بعيد عنا، العلامة التى تحملها تشبه العلامات التى تحملها سيارات التاكسى فى تل أبيب.

قلت لإبراهيم: من المحتمل أن يكون هذا السائق يحمل تليفوناً.. مارأيك فى أن نتصل منه بموفق؟.

فقال إبراهيم: ربما يكون السائق يهودياً ولا يفهم إلا العبرية.

انجهت إلى الرجل أحاول معه، وحين لمحنى هبط من سيارته وترجل وأخذ يتأملنى. وعندما وصلت اليه بادرنى هو بالكلام وقال بالعربى: عايزين تاكسى؟!.

لم أتمالك نفسى من الضحك، فقد كان ذلك الرجل العجوز يتكلم بنفس الطريقة التى يتكلم بها اليهود فى الأفلام المصرية القديمة. ذكرنى بالمثل استيفان روستى وهو يتحدث مع ابنتيه راشيل واستر بطريقة «خنفاء» كنت أظن أن لا وجود لها حتى سمعت ورأيت هذا السائق، حتى أنفه تشبه أنف اليهود المعقوف التى يرسمها رسامو الكاريكاتير العرب.

الغريب أن الرجل لم يهتم لضحكى وواصل كلامه متسائلا بنفس الطريقة الخنفاء: على فين بتروحوا؟.

فقلت له: أنت فين طريقك؟.

فقال: بأروح القدس الشرقية مع صحفية امريكية.

فقلت له: فين هي الصحفية؟.

فقال: هون في أريز.. بتيجي حالياً

قلت له: ونحن سنذهب إلى القدس الشرقية أيضاً.. هل نأتى معك؟.

فقال: ها هي وصلت هناك. بنسألها في الأول.. واذا وافقت ما في مشكلة.

لم أشأ أن أخرج نفسي وابستعدت عن الرجل حتى إذا سألها ورفضت أكون بعيداً.

صاح على الرجل وقال: هيا.. هاتوا أغراضكم.

صعدت إلى الميني باص وحرصت على شكر الصحفية الأمريكية لموافقتها
فقلت: ليس هناك ما يستدعى الشكر، فسوف يتقاضى منكما ثمن التوصيلة على
أى حال.

وقطعنا نفس الطريق إلى القدس الذي قطعه معنا موفق من قبل لاستخراج
التصريح لدخول غزة، ولكن هذه المرة مع سائق إسرائيلي «قح» وصحفية أمريكية
لم تشأ أن تضيع وقتها فأخرجت بعض الأوراق ثقلب فيها.

كنت أجلس في المقعد المقابل لها إلى اليسار، وبدافع الفضول تأملتها في
جلستها. نحيفة شقراء، ليست جميلة ولكنها خفيفة الروح، لا يمكن أن تكون أقل
من ٣٥ عاماً.

بعاسة الأنثى التي تشعر بنظرات الرجل حين تلاحقها، شعرت بي ونظرت
ناحيتي ثم ابتسمت وقالت: ARE YOU ALL RIGHT? فقلت لها: نعم وأنا
أضحك، لأن الترجمة الحرفية لسؤالها قد لا تتوافق مع الموقف، أما الترجمة
الأمريكية لسؤالها فتعني أنها تعتقد أنني في حالة غير طبيعية لأنني أطيل النظر

■ لا سلام ولا كلام ■

اليها بهذه الطريقة الفجة.

ولكننى حاولت أن أثبت لها أنني طبعى جداً فقلت لها: ألا تلاحظين أن هذه السيارة تضم أهم ثلاثة أطراف لعملية السلام فى المنطقة؟.

نظرت ناحية السائق وناحيتى ثم صاحت: أو.. معك كل الحق.. ألهذا كنت تنظر ناحيتى طويلاً؟.

فقلت لها: علاوة على أن هناك سبباً آخر.. فقد كان هذا هو السبب الأهم.. فهذه العربى هى عربى السلام!.

ضحكت طويلاً وطوت أوراقها وقالت ان اسمها «چينى واتسون» وأنها صحفية متجولة تعمل مع أكثر من مطبوعة حسب طبيعة العمل الذى تكتبه.

فقلت لها: هذا النوع من الصحفيين ليس منتشرأ عندنا فى مصر، لكنه موجود على نطاق ضيق فى كتاب المقالات وليس فى محررى التحقيقات الصحفية الخارجية.

ثم سألتنى: وأنت ماذا تفعل هنا فى إسرائيل؟.

فقلت لها: أسمع وأرى وأسأل وأكتب

فقالت: عفوا.. لا أفهم ماذا تعنى

فقلت: كنت أعتقد أن الأمريكيين يفهمون بمجرد التلميح

فقالت: ليس كل الأمريكيين مثلى

قلت لها: آسف.. لم أقصد الإهانة ولكننى أحببت أن أقول لك أنني صحفى مثلك بطريقة مختلفة.

فقالت: أوو.. زميلى العزيز، ولكنك تتلاعب بالكلمات مثل الإسرائيليين، يبدو أن العدوى اصابتك.. كم يوماً لك هنا؟.

فقلت: هذا هو اليوم السابع.
 فقالت ضاحكة: حسنا.. هذا يكفي لانتقال العدوى.. والآن ما رأيك فيما يحدث في هذا المكان المجنون؟
 فقلت لها: هل تعتقدين أن وصف «المجنون» هو الملائم لما يحدث هنا؟
 فقالت بأسف: معذرة فقد نسيت للحظة أنك عربى ولا تمارس مهنتك هنا بعيداً مثلى. أنا أسعد منك حظاً.
 فقلت لها: المهم أن تكونى عادلة وموضوعية ومحيدة فعلاً.
 فقالت: هذه هى طريقتى فى العمل.. لم أتخل عنها أبداً.. ولكنك لم تخبرنى باسم جريدتك
 فقلت لها: أخبار اليوم الأسبوعية.
 وظل حديثنا يدور حول عموميات دون أن ندخل فى تفاصيل، فقد كنت أخشى أن تكون أمريكية يهودية فتدخل المناقشات فى «حارة سد» لا تخرج منها.
 ثم انشغلت هى بعد ذلك فى مناقشة مع السائق قالت له فى نهايتها: أنت غبى.
 لكن «ستيفان روستى» لم يكن يفهم الإنجليزية.
 من عجائب القدر أن يقودنا يهودى إلى القدس!
 ومن الغريب أن يسألنا عن اسم الشارع الذى نريده، لم يكن ناقصاً إلا أن يسألنا عن اسم الناس الذين نقصدهم!
 ها هى القدس، تماماً مثلما حلمت بها، حبيبة جميلة لا تشيخ، ترفل فى ثوبها العربى الذى يرفض نجمة داود. تضع اليشمك على وجهها وتطل من وراء المشربية. وهذه هى رائحة بيت المقدس التى فشلت إسرائيل فى تهويدها.
 سمعت كثيراً عن شارع صلاح الدين المؤدى إلى باب العمود.. أشهر الأبواب

فى سور بيت المقدس، لكننى لم أتصور أنه بهذه الحياة، الوجوه العربية هنا تختلف عن الوجوه العربية التى ودعتها هناك. هل هى روح القدس التى منحتهم قبساً من الطمأنينة؟ هل لأنهم يؤدون فروضهم الخمسة فى أولى القبلتين؟ بالنضارة وجوههم وصفاء أرواحهم ونقاء سريرتهم.

حين قابلت الأخت مريم فى مكتبها بشارع صلاح الدين رحبت بنا كثيراً ثم سألتنى عمن اعطانى عنوانها. فقلت لها: اننى أحمل عنوان مجلتكم من القاهرة وأنت أولى محطاتي بالقدس.

وبدون مقدمات وجسن نبض ولف ودوران، صرت أنا وهى صديقين. حكيت لها قصتى منذ أول خطوة لى فى مطار بن جوريون، وحكت لى ما تفعله الشرطة الإسرائيلية فى القدس، وأن آخر ما تفتق عنه ذهنهم هو إنشاء نقطة شرطة أمام باب العمود سيأتى موسى شاحال لافتتاحه بنفسه.

قلت لمريم: ألا ترين أن خوف هؤلاء الناس لامبرر له؟.

فقالت: الخوف هو خبزهم اليومى، لا يطيقون الحياة بدونه، هل سمعت قول نزار: الحب فى الأرض بعض من تخيلنا لو لم نجده عليها لاخترعناه، إحدف كلمة الحب وضع مكانها كلمة الخوف فتجد نفسك أمام نظرية الأمن الإسرائيلية!.

مريم.. أريد الذهاب إلى فيصل الحسينى فى بيت الشرق.. هل تساعدنى؟.

وتدير مريم قرص التليفون وتحدث مع الطرف الآخر، فأفهم من الحوار أن فيصل خارج القدس ولا يريد الشباب - كأجراء وقائي - أن يخبروا أحداً بمكانه.

وأقول لمريم: بيت الشرق أصبح صداعاً لإسرائيل، وعلمت أن الكنيست وافق على إغلاقه.

فتقول لى: إنهم يحاولون أن يطفئوا الشمس، كل مشكلتهم هى القضاء على

■ لا سلام ولا كلام ■

علاقة الفلسطينيين بالقدس حتى تصبح عاصمتهم، إنهم لم يفهموا حتى الآن أن الناس في العالم كله يختارون عواصمهم، أما القدس فهي التي تختار ناسها، وقد اختارت القدس بالفعل ومنذ زمن بعيد فلماذا المكابرة؟ تعالى وانظر من هذا الشباك، ألا ينطق كل حجر من تلك الحجارة ويقول لك بالعربية أهلاً وسهلاً؟ ألا تشم وتسمع شدو النسيمات العربية التي تستنشقها؟ أليست قريبة من رائحة الحسين والأزهر؟.

صدقت يا مريم، والآن سنضع حقيبتينا لديك حتى نذهب إلى المسجد الأقصى ونحقق واحدة من أغلى الأمنيات التي تلازم كل مسلم.

هذا هو باب العمود.. وهذه هي فاكهة القدس على جانبيه، وهذا هو صوت فيروز يبعث بداخلي وأنا أعبر الباب إلى «شوارع القدس العتيقة». وما أجمل أن ترى أول ما ترى طفلة فلسطينية.. ملائكية الوجه وهي عائدة من مدرستها إلى منزلها مرده: «عيوننا إليك ترحل كل يوم».. كي تتزود بإكسير الحياة ورائحة الفردوس وحفنة من تراب الانبياء.

«ياليلة الاسراء.. يادرب من مروا إلى السماء» كيف ينسى كل من يمر هنا في نفس المكان الذي يلغنا ذكرى تلك الليلة؟ كيف يمكن أن يضم هذا المكان من يدنسه؟ انبياء الله الذين صلوا خلف خاتم المرسلين يرفضون ذلك وسوف يحل على اليهود غضبهم.. ولكن متى؟!

«الغضب الساطع آت وأنا كلى إيمان». ولكن إيمانى لم يبرح قلبى.. رغم أنه لم يرق بعد إلى العمل الذى يحرك يا مدينة الصلاة.

دكاكين العاديات على الصفين.. وهدايا «الناس الناطرين» تخطف الابصار لكن «الإيدين السودا» تتكسب من السياحة الدينية لنخسر نحن ثواب الصلاة فى المسجد الأقصى. و«صارت البيوت بلا أصحاب».

و«مشيت فى الشوارع.. شوارع القدس العتيقة» حتى وجدت نفسى أمام قبة الصخرة، كان يجلس على البوابة أربعة جنود إسرائيليين، حاولت ألا أراهم هنا بالذات وأحسب أننى لمجحت و«سقط العدل على المدافع».

ولولا آثار «القدم الهمجية» فى ساحة الاقصى لحسبت أننى فى الجنة وأن هؤلاء الأطفال الذين يمرحون هم عصافيرها، الآن نستطيع أن نتوضأ ونغتسل بالبرد. ملمس الماء على جلدى ليس ككل مرة أتوضأ فيها، لم يغمرنى هذا الشعور إلا فى مكة وأنا أتوضأ من ماء زمزم، لاشك أن هذا الماء كماء زمزم من إحدى عيون الجنة، فهذا الأثر ليس مجرد إحساس اتخيله لقداسة المكان. إنه حقيقى، أشعر أننى أتطهر وأتطهر حتى صرت ثوباً ناصعاً، ولولا لهفى على الصلاة لظللت مستسلماً لهذا المياه التى شربت منها حتى انتفخت بطنى.

ورغم اننا كنا فى الفتره ما بين صلاتى الظهر والعصر، كانت ساحة المسجد عامرة بالمصلين، ظننت أننى لن أحظى بصلاة جماعة حيث كان إبراهيم ينتظرنى فى الخارج لمنعم دخول آلات التصوير. لكن الجماعة كانت تنتظرنى فانضممت اليها مثلما انضم اليها بعد ذلك عشرة مصلين. ومن لم يك هنا وهو ساجد لن يبكى فى أى موضع آخر، إنه بكاء الحب والخضوع والابتهاال والرغبة فى الالتصاق بموضع السجود.

وتنتهى الصلاة.. ونبدأ فى السنة ولا أريد أن أنتهى لولا رفيقى الذى ينتظرنى بالخارج ليأخذ نصيبه من الصلاة.

اشكرك يارب على هذه النعمة التى غمرتني بها، الآن أموت مستريح البال، لقد صليت فى المسجد الاقصى بعد أن صليت فى بيت الله الحرام والمسجد النبوى الشريف، لم يبق لى إلا أن ألقى الله بقلب سليم، ليتنى مت وجبهتى ساجدة فى المسجد الاقصى تدعو الله أن يرفع مقتته وغضبه عن العرب أجمعين، كم تمنيت أن

تكون الصلاة في المسجد الأقصى هي آخر عهد لى بالحياة، أشعر أن أمنياتى كلها تحققت، ولم يبق منها سوى أن تصبح القدس عاصمة عربية يدخل اليها المسلمون فى كل وقت.

والوقت يمر سريعاً فى ساحة المسجد الأقصى ولا بد أن نكون فى تل أبيب قبل الخامسة عصرًا حيث موعدى مع الجنرال تامير حسبما حدد لى ذلك المصرى الذى يعمل بالسفارة.

ودعت مريم وزميلاتها فى المكتب واستوقفت تاكسى من شارع صلاح الدين وكان سائقاً عربياً لكنه مختلف تماماً عن موفق وماجد، لدرجة أننى لم أهتم بسؤاله عن اسمه، كان كل همه أن يفوز بصفقة مربحة من وراء توصيلنا مجازفاً بالتعليمات التى تمنع دخول العرب إلى تل أبيب، لقد استغل قرب ملامحه من ملامح اليهود وخاطر. ولم أكن أعرف ثمن هذه المخاطرة إلا مع اقترابنا من إحدى نقاط التفتيش على الطريق المؤدى إلى تل أبيب، ألقى على الجنود التحية بالعبرية والحقها بكلمتين فظنوا أنه من ملتهم وسمحوا له بالمرور. لكنه كان مرعوباً عندما وصلنا تل أبيب، ومن سوء حظه أن المرور كان مختنقاً مما يعطى فرصة لرجال الأمن الإسرائيليين لتفحص الوجوه داخل السيارات، لكن - بحمد الله - سارت الأمور على ما يرام حتى وصلنا الفندق.

عندما توجهت إلى السفارة فى اليوم التالى استوقفت سيارة تاكسى كان سائقها يهودياً مغريباً، قال لى وهو يحاول أن يستظرف: أريد أن اسمعك مطربة إسرائيل الأولى، ثم وضع شريطاً مستهلكاً يبدو أنه يحتفظ به منذ عشر سنوات على الأقل. وإذا بمطربة إسرائيل الأولى تغنى أغنياتها الشهيرة: «الهجر أهون من عذابى فى قربك، ولا شفت يوم اندم عليه وأنا جنبك».

إنه صوت ام كلثوم ليس فى ذلك شك، وعندما لمح السائق دهشتى قال

متفاحراً: كل شرائط ام كلثوم عندى فى البيت، وهذا هو الشريط الوحيد فى السيارة، أسمعته عندما أحاول انعاش نفسى.

قلت له: لا بد أنك استثناء هنا فى إسرائيل.

فقال: لماذا تقول ذلك؟ معظم اليهود العرب يعشقون أم كلثوم، ألم أقل لك منذ قليل انها مطربة إسرائيل الأولى!

كان الشئ الوحيد الجميل فى السفارة أننا وجدنا لطفى عليوة قد عاد من أجازته بالقاهرة، وبطبيعة الحال علم بما حدث معنا وأبدى أسفاً حقيقياً وندماً على أنه لم يكن موجوداً وقت وصولنا.

ولم يسترح الرجل إلا عندما شعر بأننى المجزت ما جئت من أجله وأنى لست بحاجة لليهود ولا للسفير، ولأن موعد السفر إلى القاهرة كان فى ذات المساء فقد أصر لطفى على اصطحابنا معه فى السيارة ليرينا تل أبيب ويافا.

وحملنا الرجل إلى تل أبيب «التي لم نرها»، وقفنا أمام محلاتها التجارية.

وتأملنا فترينات عرض المحلات بأسعارها الخرافية التي قال عنها لطفى أنها تساوى ثلاثة أضعاف السعر الذى تباع به فى أوروبا وأمريكا، وأن الأمر لا يتوقف على البضاعة فقط، فتل أبيب هى أعلى مدينة فى العالم، وساكن تل أبيب يتفوق فيما يدفعه على دافعى الضرائب فى العالم كله لدرجة أن مشاهدة التلفزيون والاستماع الى الراديو وضعوا لهما ضريبة، لكن يعوض ذلك أن دخل المواطن الإسرائيلي من أعلى الدخول فى العالم والبركة فى المعونة الأمريكية التي توزع عليهم بالقسطاس!

وعندما طلبت منه أن أرى المكان الذى اغتيل فيه رابين كنا - بالصدفة - نمر إلى جواره، ركن سيارته وهبطنا منها وتجولنا فى ميدان ملوك إسرائيل. شرح لنا لطفى كيف كان رابين يخطب فى شعبه من هذه الشرفة وكيف تسلل اليهودى اليمنى

ايجال عامير من خلف هذا المكان ليصعد إلى رايبين ويقتله.

وأكتشف من خلال حوارى مع لطفى عليوه أنه غارق حتى اذنيه فى تفاصيل القضية ولم ييخل على الرجل بأرائه فيما يحدث. إنه شاب مصرى بمعنى الكلمة.. يتمنى كل أب أن ينجب ولداً مثله، ومن المؤكد أنه سيكون شيئاً عظيماً ولكن بعد أن ينتهى عمله بسفارة مصر فى تل أبيب.

وتقودنا سيارة لطفى إلى يافا حيث يسكن على الكورنيش، إنها أجمل بكثير من تل أبيب، طابعها عربى خالص، باستثناء العمارات الشاهقة التى تطل على الكورنيش. والذى يعرف منطقة بحرى فى الإسكندرية سيقول أن يافا هى «بحرى» الذى تفوح منه رائحة السمك ورائحة الجدة ورائحة القهوة من المقاهى المنتشرة على الكورنيش.

وتوقف لطفى أمام مطعم عربى مزدحم بالعرب والإسرائيليين، وقال: هذا هو مطعمى المفضل وسنتناول فيه طعام الغداء، ولكن الأهم من الأكل هو عصير الليمون الذى يعده بإبداع ليس له نظير. وصدق عليوه، فقد كان العصير أروع ما شربنا، ولا أظن إننى تذوقت عصير ليمون بهذا الجمال من قبل!

وتعجبت من إقبال الشباب الإسرائيلى على شراء ساندوتشات اللحوم من بائع عربى، ولكن عندما تذوقت اللحم زالت دهشتى. وجلس صاحب المطعم معنا وقال إنه يتمنى أن يفتح فرعاً على كورنيش الأسكندرية، ثم تأسى قائلاً: ولكن هذا مستحيل.. إننى أحمل جواز سفر إسرائيلى.

وظللت اتابع زبائن المطعم من شباب وفتيات جيش الدفاع الإسرائيلى بأزيائهم الزيتية واصرارهم على أن يלתهموا الساندوتشات ويشربوا عصير الليمون فوق المقاعد التى وضعها صاحب المطعم على الرصيف.

قلت للطفى وهو يوصلنا للفندق استعداداً للسفر: من سوء حظنا إنك لم تأت

إلا اليوم، كانت الأمور ستتغير كثيراً لو كنت أول من رأيناه في السفارة.

فرد لطفى عليه: أعتقد أن المهمة الصحفية المحاطة بالصعاب نكبتها ألد من عصير الليمون، ولن تشعر بها الآن، وحسنا فعلت إنك ركزت في الشارع الفلسطيني لأن الأمور هنا تسير سيرا روتينيا ولن تخرج برأى واحد، فلو تحدثت مع خمسة ستجد نفسك غارقاً بين ستة آراء!

كان متبقيا على موعد الطائرة ساعتان، صمم لطفى على أن يقضيهما معنا في الفندق حتى يوصلنا فشكرته وأصررت أن يعود إلى السفارة لأننى فهمت أن موعد إرسال الرسالة اليوم، لكنه كان مصراً فأقسمت له أننى تحدثت تليفونيا مع السائق في الصباح وسيأتى في مواعده.

خمس ساعات فقط قضيتها مع لطفى.. فهل هذه المدة كافية لكى تحب انساناً وتتمنى أن يصير صديقاً لك؟ لقد شعرت أنها خمس دقائق فقط، ومع ذلك فقد عرفت خلالها كل شئ عنه وعرف هو كل شئ عنى، واكتشفنا أن لنا اصدقاء مشتركين في القاهرة! هذا هو المصرى الحقيقى الذى يلقاك فى سفرك ولا يتركك إلا مخلفاً وراءه بصمة لا تمحى.

وحان وقت العودة.. وفى الموعد يصل موفق. كانت يدها ملخبطتان بالشحم وهو يعتذر لى قائلاً: عملتها معى السيارة مرة أخرى يا أخ عاطف، أنا آسف، لكننى أحضرت زميلاً لى بسيارته ليقوم بالمهمة.

قلت له: أوعى يكون «ياكوف».

فضحك وقال: لا أنه شاب عراقي.. أو بمعنى أدق إسرائيلى من أصل عراقي ويحب المصريين جداً وهو الذى أصر على توصيلكما.

وعرفنا موفق بزميله. كانت ملامحة أقرب إلى المغاربة منها إلى العراقيين، ولم نتكلم طوال الطريق إلى المطار إلا فى ماركات وموديلات السيارات الاكثر شيوعاً

■ لا سلام ولا كلام ■

فى إسرائيل وفى البلاد العربية.

ومثلما حدث فى مطار القاهرة حدث فى مطار بن جوريون، فريق من المحققين يسأل كل مسافر لمدة ربع ساعة، وعندما حان دورى كنت قد حفظت الأسئلة والرد عليها: نعم.. نعم.. لا.. أحياناً.. أبداً وهكذا.

حتى مضيفات الطائرة قدمن سندويشات «اللانسون» التى اعتذرنا عن عدم قبولها أيضاً.

وبعد ساعة وصلت طائرة شركة «العال» الإسرائيلية إلى مطار القاهرة، حين قرأت اللوحة الشهيرة المكتوب عليها: «أدخلوا مصر بسلام آمنين». طفرت الدموع مرة أخرى وكأننى كنت فى معتقل المغول وأفرجوا عني بعد نصف قرن.

جريت مثل المجنون ناحية ضابط الجوازات لأكون أول من ينهى إجراءاته.

- قال لى ضابط الجوازات المبتسم: الحمد لله على سلامتك.

- الله يسلمك.. وحشتونى

- يا راجل.. أنت لم تغب أكثر من عشرة أيام

- ظننتها عشرة أعوام

- وكيف الحال هناك؟.

- انظر إلى وجهى وانت تعرف

نظر الضابط إلى وجهى ملياً ثم قال بأسف:

- يا اه.. للدرجة دى!

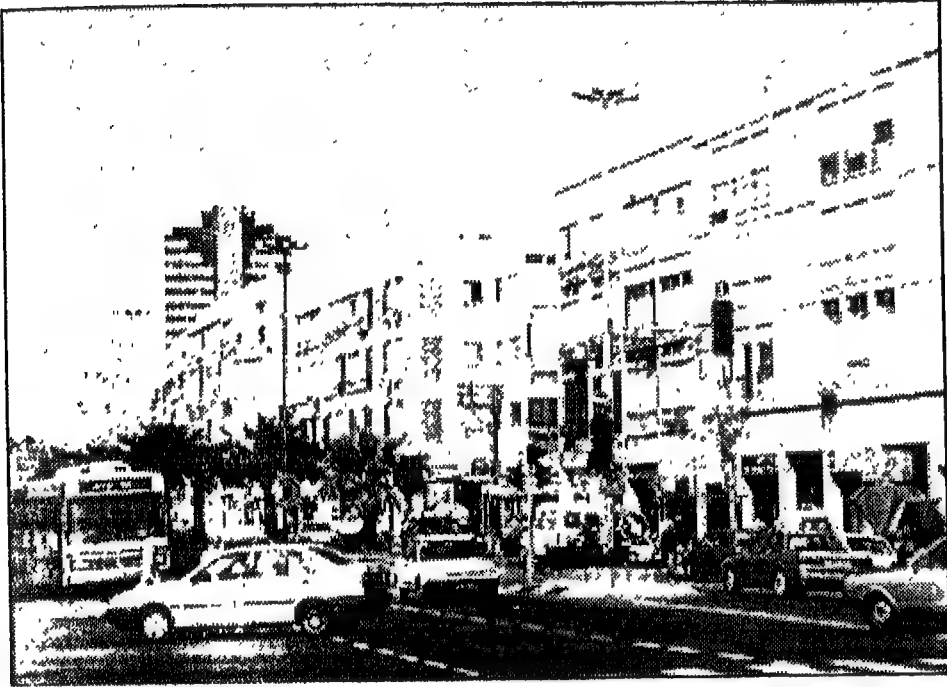
الفصل الثالث عشر

صور من هناك



بعدسة: إبراهيم مسلم

شارع «دیز نجوف»



فى نفس هذا الموقع من شارع «دیز لنجوف» بقلب تل أبيب. وفى أتوبيس مشابه لذلك الأتوبيس، فجر أحد شباب حماس نفسه بين الركاب الإسرائيلىين.

هذه الصورة عقب الانفجار بأسبوع.. وهذه المباني هى بيوت ومصالح تل أبيب، فهنا الشوارع متشابهة والبيوت أيضاً، ولم تعرف هذه المدينة الأبراج العالية إلا بعد توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، فمصر كانت - ولا تزال - مبعث الخوف لديهم.

خائف من المستقبل



حين جلست إلى محمد بسيوني سفير مصر في تل أبيب كان متشائماً من المستقبل فيما لو أطيح بصديقه بيريز وجاء نتانياهو. السفير بسيوني كان خائفاً على مستقبل السلام وشكك في أن تلتزم حكومة الليكود بالتزامات حكومة العمل.. وشكك في إعادة الانتشار بالخليل.

وللأسف تحققت كل مخاوف الرجل الذي يعرف اليهود ربما أكثر مما يعرفون هم أنفسهم.

عصا التأديب



وحين جلست إلى محمود كريم سفير مصر في غزة كان متشائماً من استكمال المسيرة السلمية وشرح لى الإجراءات الغاضبة التى اتخذتها إسرائيل فى صورة عقاب جماعى يهدف إلى التجويع أكثر مما يلوح بعصا التأديب. كان سفيرنا غاضباً من إصرار إسرائيل على عقاب المرضى ومنعهم من تلقى العلاج حتى مات ١٨ مريضاً بالفشل الكلوى والسرطان.

هنا مات رابين



هذا المبنى هو بلدية إسرائيل الذى يشرف على ميدان أطلقوا عليه اسم «ملوك إسرائيل»، وفى هذه الشرفة المطلة على هذه النافورة وقف إسحق رابين يخطب فى شعبه مبشراً بالسلام ومعدداً لمزاياه، وفى اللحظة التى ارتفع فيها التصفيق لرئيس الوزراء الإسرائيلى كان الشاب اليميني المتطرف إيجال عامير يضع كلمة النهاية فى حياة الجنرال رابين.

لن نضع سلاحنا



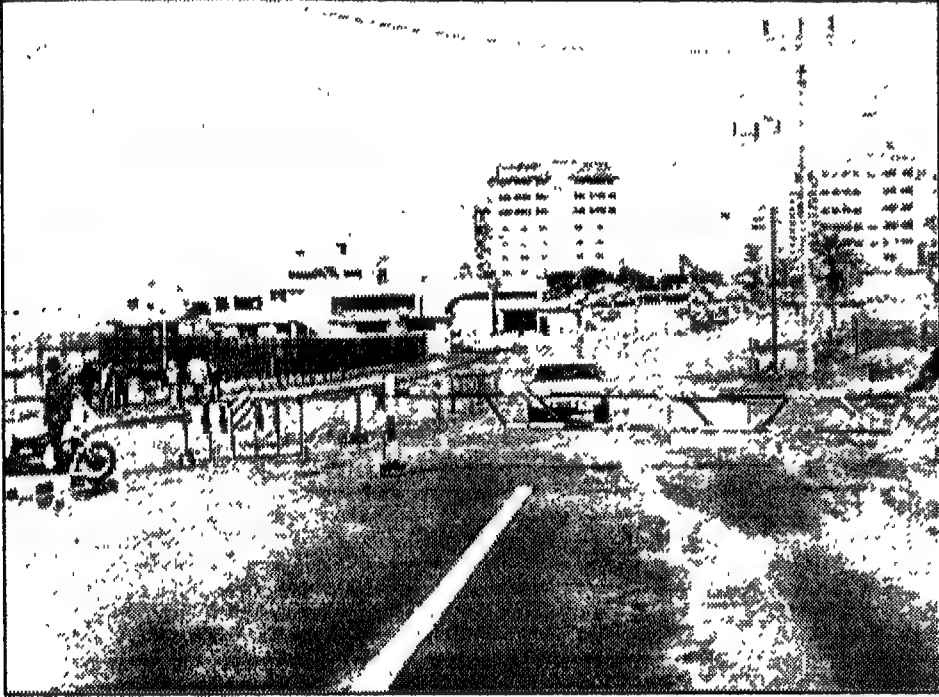
الشيخ عماد الفسالوجي. كانت نظراته أمضى من كلماته وهو يقول لي أن حماس لن توقف عملياتها العسكرية طالما بقيت إسرائيل تحتل فلسطين ونحرّمها من عاصمتها القدس.. وطالما كانت هناك الخليل في قبضة الإسرائيليين.. وطالما ظلت معتقلات إسرائيل مليئة بالفلسطينيين.

شيخ الصامدين... والرافضين



الدكتور حيدر عبد الشافي أفنى عمره في المقاومة والصمود من أجل أن يرى الدولة الفلسطينية المستقلة، لم يشأ أن يترك غزة وينفى نفسه في الخارج ويناضل بحنجرته، بل أعطى مثلاً يحتذى للنضال، وكشف نوايا إسرائيل في مفاوضات واشنطن، ولذلك عندما تم توقيع إتفاق أوسلو كان أول المعارضين له، ومع ذلك وقف شعب فلسطين كله خلف حيدر عبد الشافي ومنحوه اصواتهم فى انتخابات المجلس التشريعى.

هذه هي غزة



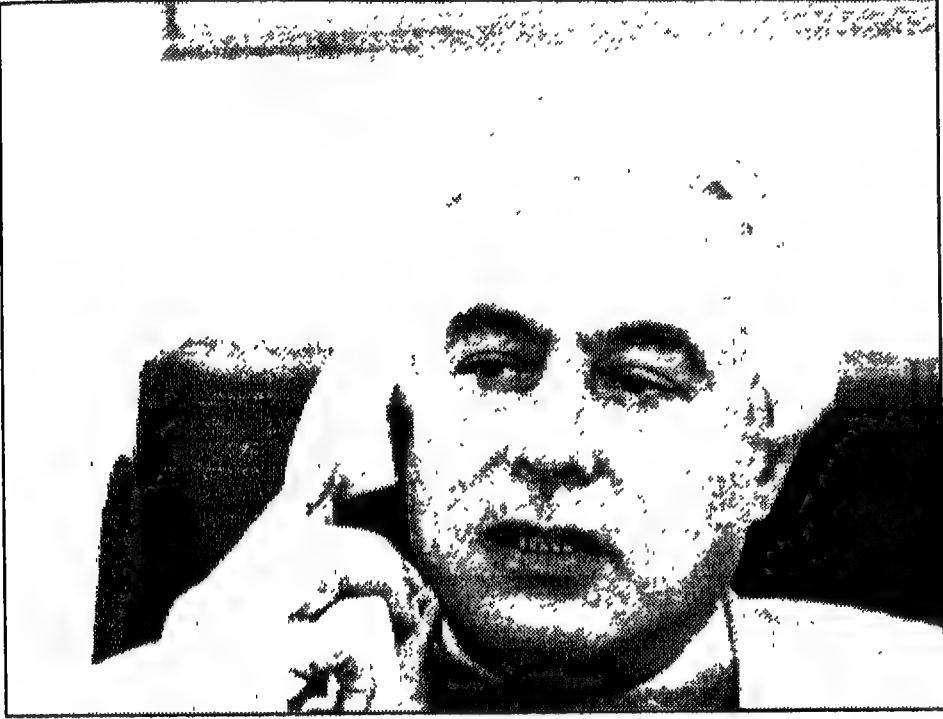
العمارات الحديثة بدأت ترتفع في غزة بعد تطبيق اتفاقية الحكم الذاتي،
والسيارات الفاخرة عادت من المنفى، وبوابات الأمن «الفلسطينية» حلت محل
بوابات الأمن الإسرائيلية ولكن هل يشعر هؤلاء المارة بالحرية...؟
هذا هو السؤال.

أريز الرهيب



«على مدد الشوف» مسافة فاصلة بين جنديين فلسطينيين يقفان على حدود غزة، وكتيبة إسرائيلية لا تدركها الأبصار تحمل أسلحة على أهبة الاستعداد وليست أفواهاها موجهة - مثل تلك البندقية - إلي الأرض . إنه الطريق إلى أريز الرهيب الذي يفصل بين حياتين مختلفتين كل الاختلاف.

حارس المرمى



عشاق النادي الأهلي تعلقوا بهذا الرجل في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات. كان مروان كنفاني من أفضل حراس المرمى في مصر وأصبح الآن من أفضل مستشاري الرئيس ياسر عرفات. وما بين المرحلتين مشوار طويل رسمه استشهاد غسان كنفاني - شقيق مروان - فقرر الأخ الأصغر أن يكمل مسيرة الأخ الأكبر. وألقى مروان بنفسه في يم القضية الفلسطينية حتى أصبح من رموز السلطة الوطنية الفلسطينية ومن أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني.

مى.. وفدوى.. وريم



للحظة مرت
كالخاطر تمنيت أن
تكون إحداهن
ابنتى. وحين
اقتربت منهن
وتأملت الملامح
والبراءة
والضحكة
والرؤوس النبيلة
عرفت أنهن
شقيقات عائدات
من المدرسة.

يسكن هنا..
داخل بيت
المقدس.. فى
شوارع القدس
العتيقة. لم تبح
أحداهن هذا
المكان.

سألتهن عن
مصر.. فقلن:
نعم نعرفها.. أم
الدنيا.

سألتهن مرة
أخرى: هل
توددن زيارتها؟.

فقلن فى
صوت واحد: لن
نترك القدس أبداً

الويل .. لمن؟



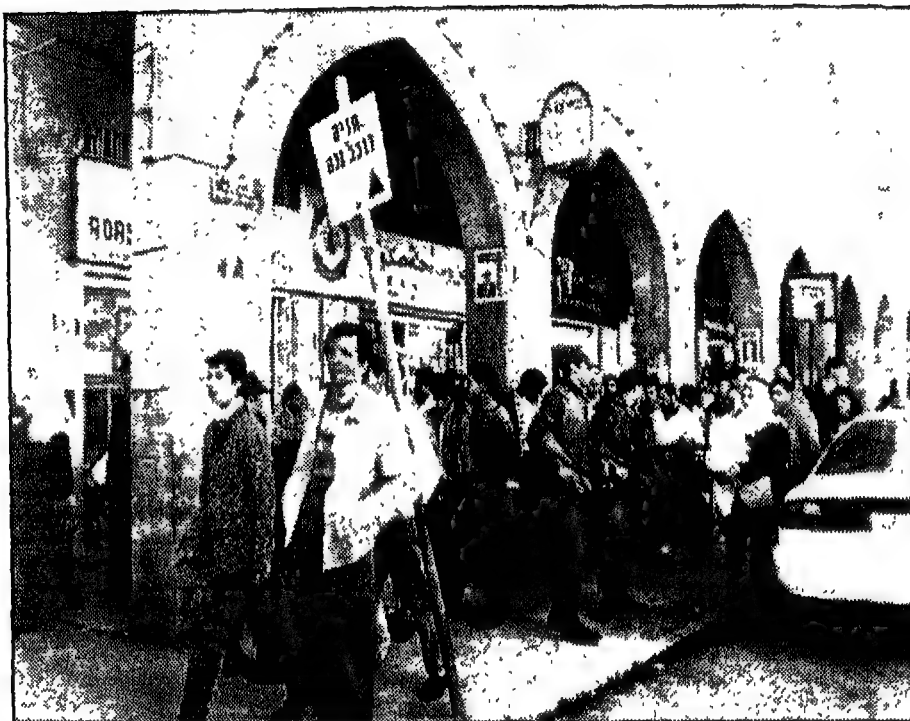
على سور القدس كتب أحد الفلسطينيين «الويل» ولم يكمل العبارة على
طريقة «الحدق يفهم»

أين الهوية؟



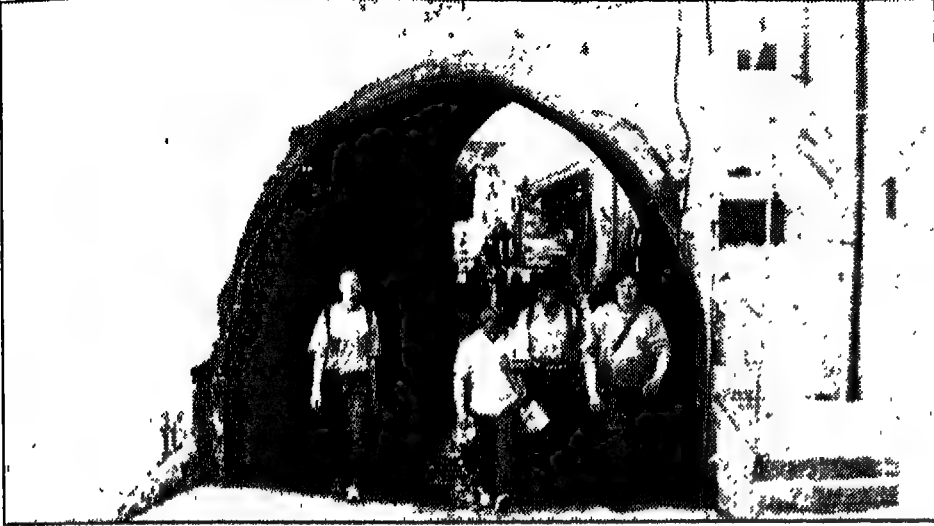
هؤلاء الجنود الإسرائيليين على جانبي باب العمود يسألون الرائع والغادي
«أين الهوية» إذا نجوت من أحدهم فلن يتركك زملاؤه الآخرون.

مطحنة صلاح الدين



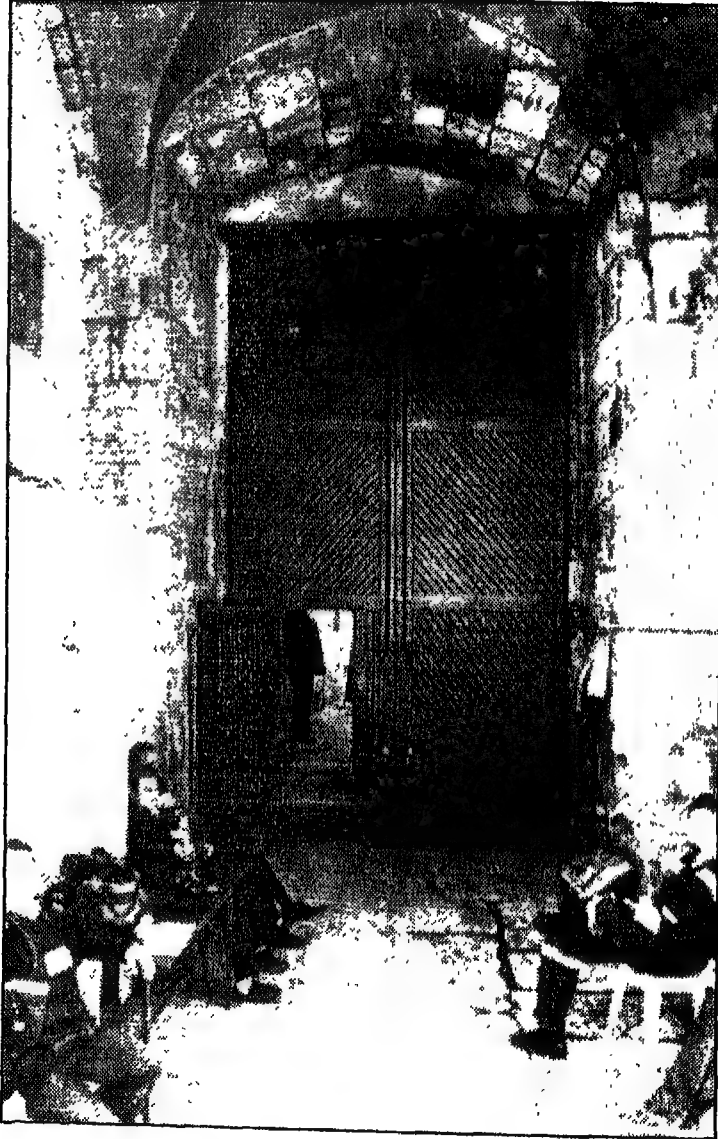
شارع صلاح الدين أشهر شوارع القدس. مزدحم دائما رغم هذه الرشاشات الإسرائيلية وتلك الأصابع المتأهبة على الزناد. من هذا الشارع يمكن أن تشتري كل شيء وأى شيء يحمل رائحة القدس الشريف.. وخاصة البن.

حلال عليهم... حرام علينا



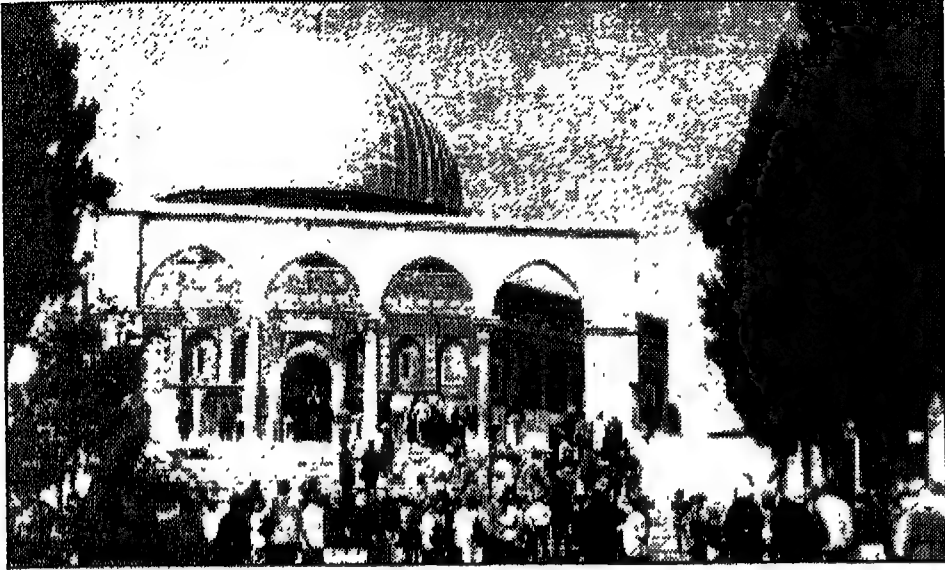
تربح إسرائيل كثيراً من السياحة الدينية، من كل أنحاء العالم يأتي السياح إلى القدس لرؤية المسجد الأقصى وكنيسة القيامة وشراء تذكارات خالدة من المدينة الخالدة.

عفوآ.. لهذا المشهد المؤذى



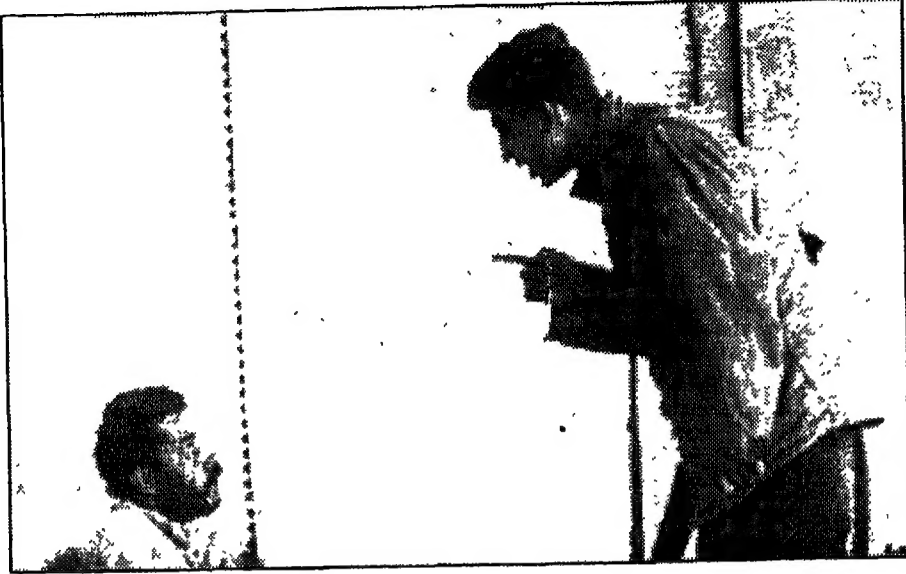
على أحد
الأبواب
الخارجية
للمسجد
الأقصى وقبة
الصخرة جلس
هؤلاء الجنود
الإسرائيليين
ليرحبون
بالسياح
وليستوفوننا
ويسألوننا إلى
أين تذهبون؟
علي كل باب
يوجد أمثال
هؤلاء، وقفت
في الجانب
الآخر من
البوابة حتى لا
أراهم..
ولكنني رأيتهم
بعد ذلك في
هذه الصورة.

ولا تعليق!



ملحوظة: لا يوجد مسلم واحد بين هؤلاء السياح الذين يحتلون المساحة بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

لا سلام ولا كلام



في شوارع الخليل لا يوجد إسرائيلي منزوع السلاح، بل أن السلاح الذي يحمله
المستوطن مزود بتلسكوب حتى يصيب «العدو الفلسطيني» صاحب الأرض في
الصميم، إنهم يملون إرادتهم وعلى هذا الفلسطيني أن يجلس هكذا وينظر.. فقط!

الفهرس

٣	المقدمة.....	●
٨	صرخة من بورسعيد	●
١٦	يوم القيامة	●
٢٤	موعد مع الموساد	●
٣٤	ذات مساء فى تل أبيب	●
٤٧	عسقلان.. وليس اشكيلون	●
٥٨	الطريق إلى «أريز»	●
٦٩	فندق الأمل	●
٨٢	داخل الهرم الفلسطينى	●
٩٤	اعدام مليون زهره	●
١٠٦	أغنية على الممر	●
١٢٠	قرية الخونة	●
١٢٩	القدس لنا	●
١٤٣	صور من هناك	●

رقم الايداع

١٣١٦٨ / ٩٦



الكتاب والكاتب

ذهب عاطف حزين إلى اسرائيل يبحث عن مستقبل السلام، فإذا
بثعابين الماضي تطل برؤوسها اللعينة، «وتبخ، سموها هي وجهه،
وتنسيه المهمة التي ذهب من أجلها»

أجرى حوارات مع الجوع وليس الجوعى، مع المرض وليس المرضى،
ومع الموت وليس الموتى. بحث في شوارع تل أبيب والقدس وخزة عن
حروف كلمة السلام المبعثرة، فلم يجد إلا ثلاثة حروف.. ح.. ر.. ب!
ويبدو أن عاطف حزين رئيس قسم التحقيقات الصحفية
بجريدة «أخبار اليوم»، قد نسي هويته الصحفية في مطار القاهرة،
ووصل إلى اسرائيل وهو يحمل هوية طفل بورسعيدى عمره عشر
سنوات.. له صولات وجولات مع الاسرائيليين، بدأت لحظة مولده،
ولم تنته إلا لحظة رفع علم بلاده على الضفة الشرقية لقناة
السويس.

ومع ذلك استطاع ذلك الطفل، أن يقدم مزيجاً مدهشاً من الرؤية
السياسية والرواية الأدبية ومن أدب الرحلات، وأدب الاعترافات،
وفن التحقيق الصحفى.. وإن شئنا اختصار
كل ذلك في جملة واحدة.. فهذا كتاب
جديد في فرع جديد من الكتابة اسمه،
الأدب السياسى.

الناشر



دار العقل العربى
الكوم الاخضر. فيصل - القاهرة
٣٨٣٢٠٧٦٠ ت